محمد ماهر

لغز المكان الصامت

رواية

القسم الأول

لا شيء واضح... كل شيء أضحى سراباً

في بداية يومٍ من أيام حزيران الاعتيادية، وعلى فراش الصباح الساخن الذي سبَّبته أشعة الشمس المنبعثة من زاوية النافذة التي تغطيها ستارة رقيقة كانت تتطاير بفعل الهواء المنطلق بقوة من الخارج. استيقظ (أنس) مستاءً من الحرارة التي كانت تجعل قدميه تُشعرانه كأنهما كانتا داخل آلة تحميص الخبز. نظر إلى هاتفه نظرةً خاطفة ثم نهض عن سريره متجهاً الى المطبخ بعد أن غسل وجهه وسقى أزهار الياسمين البيضاء التي كان يضعها على شرفته. كان يشتهي كوباً من القهوة الساخنة وقطعة من الفطائر المحلاة التي كان قد اشتراها ظهر الأمس. جلس ليستمع إلى المدونة الصوتية الانجليزية التي اعتاد أن يسمعها كل صباح بعد الإفطار منذ أن بدأ بتعلّم اللغة الانجليزية. ثم استمع الى بعض الموسيقى الكلاسيكية التي كان معتاداً أن يستمع لها كل يوم أيضاً.

كان يجد متعته في هذه الساعة الصباحية من يومه، كانت تُشعره بأنَّ لديه شيئاً يبقيه متقبلاً لفكرة الاستمرار في حياته هذه. رغم أنه كان نادراً ما يجد شيئاً يجعله يتطلع بنظرة ايجابية، إلا أنه منذ أن بدأ بتلقّي دروس اللغة، شعر وكأنَّ لديه شيئاً يبقيه منشغلاً عن بعض الأمور التي كانت تأكل منه أجزاءً كل يوم.

رِكب سيارته واتَّجه إلى العمل. كان يكره عمله كمحاسب، ولكنه كان الشيء الوحيد الذي يوفّر له الدخل الشهري، وكان على علم بهذا. وكانَ يَعلمْ أنه يجب أن يكون أكثر عقلانية في هذا الامر، اذ لم يكن يتقن شيئاً سوى هذا العمل، فقد وصل الآن الى ما يقارب العشر سنوات فيه. أصبح وكأنه وُلد محاسباً منذ النشأة.

فكّرَ وهو يقود سيارته متجهاً الى العمل: يا لهَولِ ما تفعله الرتابة في الحياة، تصبح وكأنها أكواماً من التراب تنهال فوق رأس الشخص، حتى تصل به إلى البقاء تحتها دون القدرة على التنفس. تشعره وكأنه دفن حياً داخل قبرٍ معتم، ولكن الفارق الوحيد أنه يكون قادراً على مشاهدة كل ما يحصل، دون القدرة على التغيير.

كان الشيء الوحيد الذي يُبقي أنس متحمساً للذهاب الى العمل، ومتناسياً كل الأفكار المقيتة التي تنتابه هو (جميلة) زميلته في العمل. كان معجباً بها جداً. ولكنه لم يخبرها بذلك، فقد كان يخشى الالتزام في علاقة جادة. ليس لأنه إنساناً غير سويّ. أو لأنه شخصاً يحبُّ التلاعب والكذب وقضاء وقتاً ممتعاً. إنما كان خوفه من العلاقات ذاتها. كان يقول دائماً أنه غيرَ جاهزٍ لتكوين علاقة لا يعلم ماذا ستكون نهايتها. كان يفكّر أنه لا يعلم كيف يدير حياته الشخصية، فكيفَ له أن يلتزم بعلاقة تحتاج بذل كلَّ الجهد لكي تبقى في أوج فاعليتها. كان شخصاً كثير التحسُّب، كان يحسُب كلّ خطوة، وكل قرار، وكل فكرة يُقدم على تنفيذها.

أمضى يوماً كسائر أيامه المعتادة في العمل. بيانات، أرقام، أسعار، إيرادات. كان قد اعتاد على طبيعة عمله هذه. لم يكن شيئاً يبدو غريباً عليه. كان يُدير الأمور التي يَشغلها وكأنه المسؤول أو ربُّ العمل. لكنه رغم هذا كلّه، لم يكن يجد السعادة فيما يعمل، لم يكن يجد السعادة او الشغف في أي شيء يعمله. كان أقلّ ما يمكن أن يُقال إنه شخصاً منطفئ القلب ومشغول العقل.

كان بعد انتهاء وقت العمل عادةً يذهب للجلوس في حديقةٍ عامة، يفضّل الجلوس على المقعد متأملاً في خياله الملغوم بأنه يعيش في كوخٍ خشبيّ في إحدى ضواحي سويسرا الريفية، وأنه يرعى قطيعاً من الأبقار التي يَحلِبها ويبيعُ حليبها، وبذلك يكسب المال. كان يُفضّل أن يذهب بمخيّلته الى أماكن بعيدة وقديمة كلّ القِدم عن العالم المعاصر الذي يعيش. كان يتوقُ الى العالم القديم، والى البساطة التي أضحَتْ مجرَّد كلمةٍ في هذا الوقت من الزمن. كان يتمنى لو أنّه عاصرَ أشخاص الزمن القديم، وتحدّثَ معهم، وعاشَ تفاصيلهم. ربما كان سيتذمّر كما يفعل الآن، ولكن هناك شيئاً في أزقَّة مخيّلته تسوقَهُ للاشتياق الى تلك التفاصيل. كان يقول دائماً أنه رجل الأمس، وحالِم العتاقة، وتوّاق الماضي.

شعر أنه لا يرغب بالعودة الى المنزل باكراً. أرادَ قضاءَ بعض الوقت خارجاً عن الروتين المألوف لديه. قرّر المشي لبعض الوقت. اشترى كوباً من القهوة من بائعٍ بعربة متنقلة على أطراف الحديقة. وقرّر تناول غداؤه خارجاً، وهو أمر نادر الحدوث. ذهب حيث أخذته أقدامه بعد الانتهاء من الغداء. فكّر في نفسه: ماذا لو لم أرجِع اليوم الى المنزل، من

هناك لينتظرني؟ توقف قليلاً عن المشي وفكّر في العبارة التي تخاطرت له. ظهرت ابتسامة خفيفة يضفي عليها الحزن قليلاً، أو ربما كانت بسبب الوحدة التي يعيش. كان متقبلاً لفكرة الوحدة. وكان يقول إنَّه يَسعد بصحبة نفسه وفي الأمور التي يبقي نفسه منشغلاً بها. ولكنّه ربما كان يُجبر نفسه على القبول بهذه الفكرة. وربما كان يعلم أنه يحتاج الى أحد يقاسمه أجزاء حياته المتشعبة.

ازداد الأمر سوءاً معه منذ أن قرّر ألّا يعود إلى المنزل. أصبح متوتراً قليلاً. متحسباً لما سيفعل بعد ذلك. أين سيبقى. أين سيذهب. ماذا يفعل الآن. ما الذي ينوي فعله. لا شيء كان واضحا أو قد تم ترتيبه للحدوث معه. كان شخصاً تُضفي الرتابة على حياته. تجعله عبداً لها، ولكل ما يفعل في أيّامه.

وبينما هو شاردُ الذهن في الافكار الماطرة التي تنهمر داخل رأسه دون توقف. وجد أنه قد وصل الى مكان لم يكن قد رآه قبلاً. كان شارعاً فارغاً يمتلئ بالمنازل المتراشقة على كلا الجانبين. لم يكن هناك أيّ حركة في ذلك الحي. لم يكن هناك شيئاً يدلّل على وجود البشر في هذه المنازل. أخذ يمشي بخطوات متثاقلة في وسط الشارع، وكانت نظرة استغراب ودهشة تضفي على وجهه.

نظر إلى ساعته، وجدها متوقفة عند الساعة الرابعة إلا ربع. نقر بيده على زجاجها، ربما تعمل، ولكنها بقيت كما هي. أخذ ينظر إلى المنازل البيضاء على الجانب الأيمن من الشارع. كانت كل منازل الجانب الايمن تحمل تصميماً واحداً متشابها. وبيوت الجانب الأيسر تحمل تصميماً

واحداً أيضاً وهو اللون البني الداكن. فكّر باستغراب: إنه ليس يوم عطلة، إنه الأربعاء.

أخذ بالاقتراب من بيوت الجانب الأيمن، نظر من نوافذها، لم يكن يبدو أن هناك أحداً داخل هذه المنازل. بيت، بيتان، ثلاثة. لم يكن هناك أحداً حقاً. قطع الشارع راكضاً متجهاً الى بيوت الجانب الأيسر. النتيجة ذاتها، لم يكن هناك أحد. زاده الوضع استغراباً ودهشة. ما حال هذا الشارع الممتلئ بالبيوت الفارغة من السكان؟ أخذ يتلفّت يمنةً ويسرة، أمامه وخلفه. لم يكن هناك شيئاً يدلّل على وجود حياة سابقة في هذه البيوت أو في هذا الشارع. ما هذا؟ أين أنا؟ أخذ يسأل نفسه. قرّر الرجوع خوفاً من أن يتوه هنا، فقد آن للّيل أن يحلّ. وبدأ ضوء النهار يصبح خافتاً رويداً رويداً.

عاد أدراجه الى الوراء وقرر الخروج من هذا المكان. ولكن مهلاً، فهو لا يعلم كيف أتى الى هنا. لقد كان يمشي وإذ به يجد نفسه داخل المكان. كيف وصل؟ كيف سيخرج؟ لم يكن يملك أدنى فكرة.

بعد برهة من الوقوف متسمّراً وسط الشارع، لاحظ أن ضباباً بدأ يغطّي الجزء العلوي من البيوت. لم يعرف مصدر هذا الضباب. إنه حزيران، لا يفترض ان يكون هناك ضباباً في الأصل، كان الطقس لطيفاً في ذلك اليوم، تسوده بعض الحرارة المرتفعة منذ الصباح ولكنها بالحد المعقول. ما سبب كل هذا؟ اخذ يتساءل والعرق يغطي جبينه. ازداد الضباب بالتكاثف، وبدأ جزءاً من البيوت يصبح غير واضحاً للرؤية.

نظر الى الشارع، ثم الى الطريق الذي يؤدي إليه، لم يكن يستطيع رؤية أي شيء.

ازدادت حدة التوتر لديه. فكّر في الركض هارباً ولكنه لم يعرف من أين يذهب. بدأ يتمتم كلاماً بصوتٍ خافت يكاد يكون مسموعاً: لا شيء واضح، لا شيء واضح، كل شيء قد اختفى، كل شيءٍ أضحى سراباً.

الأربعاء المعتم... عندما بدأ كل شيء

كانت السيارةُ مسرعةً وهي تقطعُ الشوارع دون توقف. انعطفتْ في كافة الشوارع وكأنْ ليس لها وجهة محددة تذهبُ إليها. كان (بسّام) يقود دون تركيز. لم يكُن يعلم أين يذهب حقاً. كان يذهب إلى اللامكان. بأيدي مرتبكة على عجلة القيادة، وجبينٍ متعرق، وعينان تتلفّت بتوتّر على جوانب الطريق، كان يقود في الشوارع المزدحمة. لقد تلافى لتوّه حادثاً كان قد يكون مروّعاً لولا أن لاحظ في اللحظة الأخيرة.

لقد كان هارباً من ضغوطات حياته. فكلّ ما لديه ليسَ له. كل ما يَملك أصبح مرهوناً للبنك. فجأة أصبح لا يمتلك أي شيء بعد أن كان متنعماً بالترف.

كانت أخطائه تعاقبه على ما فعل. كانتْ تعطيه أشد عقوبة ممكن أن تحدثَ لبشر. فقد أصبح متشرداً بلا مأوى. عدم امتلاكِ منزلٍ أو مكانٍ للنوم. إن الإنسان لا يعلم قساوةَ هذا الشعور إلّا عندما يعايشه. يا لبؤسِ حياته بعد اللحظة. كان يجب أن يحسب لهذه المرحلة. كان يجب أن يراقب تهوره وتسرّعه المميت. وكان يجب أن يمنع نفسه عن هوَس التملّك المستمر وعدم الاكتفاء.

بدأ حياته كشخصٍ ناجح. كان لديه كلَّ ما ليس لدى أحدٍ في عمره ما لديه. فقد كان موظفاً ناجحاً ومتميز. حصل على الكثير والكثير من التقديرات والترفيعات والعلاوات المالية السنوية. كان قد قدّم الكثير

لعمله، وكان مخلصاً به. وهذا ببساطة لأنه كان يعمل ما يحبّ. كان يعمل مبرمجاً ومطوراً للحاسوب. وبفضل مهاراته العالية، فقد اخترع نظاماً هاماً للشركة التي يعمل بها يمكنها من ترويج أعمالها الى عدد لا يحصى من البلدان. وذلك عن طريق اعلانات غير مدفوعة تظهر في الإنترنت وفي جميع وسائل التواصل المتوفرة. كان قد توصّل الى اختراعٍ جعله الموظف الأكثر تميزاً في تلك الشركة. ورغم أن هذا العمل يعتبر غيرَ قانونيّ. إلّا أن أرباب عمله كانوا آخر شيءٍ يفكرون فيه هو الأمور القانونية.

لقد أكسَبه هذا النظام الكثير في عمله. كما أكسَبه على صعيده الشخصي. فقد بدأ يفكّر بنجاحه كمبرمجٍ للحاسوب. وكان فخورا جداً بما فعل.

إلّا أن الأمور لم تَسرْ على ما كانت عليه لأكثر من سنتين. فبعد مرور هذا الوقت. تم ملاحظة النشاط الغير عادي للشركة. وقد تمّ اكتشاف الحيلة التي قام بها بسّام من قبل الجهات المسؤولة. وعلى إثر ذلك، تم إغلاق الشركة، وتحويل جميع موظفيها الى التحقيق. تمت معاقبة المدراء المسؤولون عن الشركة بمبالغ كفالة يدفعونها. وتمّ الحجز على أرباح الشركة للسنتين المنقضيتين بعد إثبات صحة النظام الذي كانوا يتّبعوه. أما بسّام فقد نال القسم الأكبر من العقاب. فهو المؤسس وصانع هذا الاختراق. حُجز على رصيده البنكيّ للسنتين الأخيرتين. ولأن منزله الكبير الذي يمتلكه كان قد اشتراه عن طريق قرضٍ بنكيّ، تم الحجز عليه، وتكليفه بدفع كفالة بمبلغ كبير. ما جعله يُنفق كل ما تبقى لديه من الأموال. أصبح لا يملكُ شيئاً. كل شيء قد انتهى بسبب

الجشع الذي كان لديه. وبسبب غرور السعي للعظمة الذي لم يصل إليه إلا لوقت ضئيل.

بعد ذلك لم يعلم ما يفعل. في ليلة وضحاها أصبح شخصاً فارغاً تماماً. لم يعد يملك شيئاً البتّة. لقد تبخّر كل شيء كان قد أنجزه. تحوّل من النوم فوقَ الغيوم الى النوم بجانبِ حاويات القمامة، والحدائق العامة، وجوانب الطريق. هذا ما كان سيحدث.

بعد انتهاء كل شيء. وبعد إنفاق آخر بنسٍ كان يملكه. فكر بسّام بما سيفعله. وقف متسمّراً في مكانه. لم يكن لينسى هذا اليوم. إنه الأربعاء، الخامس عشر من حزيران، في هذا اليوم خسر كلَّ شيء. رفع نظره الى السماء. كانت الشمس لا تزال ساطعة. لم يبقَ لديه شيء سوى سيارته. إنها الشيء الوحيد الذي كان يملكه قبل أن يخترع ذلك النظام المشؤوم. وقد شكرَ نفسهُ على عدم استبدالها وشراء سيارة أخرى جديدة كما كان يفكّر. فلقد كانت ستذهب كما ذهب كل شيء امتلكه.

ذهب لقضاء بعد الوقت على ضفاف النهر. مستمعاً لخرير المياه الجارية. فكّر في إلقاء نفسه فيها. فلم يعد يملك ما يحفّزه على الاستمرار في حياة فارغة كهذه، ومع هذا الفشل الذريع الذي حل به. لكن سرعان ما ذهبت الفكرة من رأسه. وتبادرت لديه فكرة أخرى. قرّر أن يركب سيارته ويقود الى ابعد مكان قد يصل إليه.

كان في البداية يقود ببطيءٍ شديد. لم يكن يفكّر بمكان واحد ليذهب إليه. كان خالياً من الأصدقاء والعائلة. كانت شخصيته المغرورة في الماضي لم تدعه يمتلك صديقاً واحداً يتحمّل نرجسيته. وقد ترك بيت

عائلته في وقت مبكّر لأنه كان يريد الاستقلالية والنجاح بعيداً عن أعين العائلة التي كان يصفها بالمتخلّفة.

في الماضي كرِه العيش في منزل عائلته المتواضع. كان يقول إنه أعظم من أن يسكن في بيتٍ كهذا، وحي كهذا، وعائلة كهذه. لم يكن قد أنجزَ شيئاً بعد. كان لا يزال طالباً جامعياً يدرس هندسة الحاسوب. وكان والده يعمل كل ما يقدر عليه كي يجعله شخصاً أفضل منه. والده يعملُ محامياً. ولكنّه كان شريفاً. كان يرفض استلام القضايا التي يجدُ بها شيئاً غير واضح. أو حتى إن انتابه الشك في ذلك. ولهذا كانت معيشتهم بسيطة. فلو أنه يقبلُ استلامَ المبالغ الطائلة التي تُعرض عليه مقابل القبول بقضايا ملفوفة بوشاح القانون الكاذب، لأصبح يملك كل شيء يتمناه. ولكنه لم يكن ليخون مبادئه التي بناها لنفسه ولعمله محامياً للمظلومين.

على إثر ذلك، كانت عائلته تحول بين الدخل المتوسط والقليل. وكان بسّام منزعجاً من أنه غيرُ قادرٍ على امتلاك ما يملكه أقرانه في الجامعة من هواتف حديثة، وأجهزة حواسيب محمولة من نوع "أبل", وملابس تحمل أسماء الماركات الباهظة. كان شخصاً يلفته المظاهر الخارجية للأشياء. لم يكن يرضَ بما يملك. كان دائماً ينظر الى ما لا يملك ويفكر فيه. كانت هذه معضلته في الحياة. وربما هي معضلة الكثيرين. فمعظم الناس ينظرون الى ما يملكون وكأنها فراغاً، وينظرون الى الأشياء التي لا يمتلكوها وكأنها قطعاً من الجنة.

استمر بسّام بقيادة السيارة. ولكنّه بدأ يسرع قليلاً. كان يدخل من شارع ويخرج من الآخر. لم يكن هناك وجهة. لا منزل، لا عمل، لا حياة. لا شيء سوى هذه السيارة. ستصبح منزله الوحيد بعد ما حصل.

فكّر في العودة الى بيت العائلة. لكنّه كان خجلاً من الذهاب بعد كلِّ ما فعله من أخطاء مع والده. ففي اليوم الذي سبق خروجه من المنزل، دخل في نقاشٍ محتدم مع والده أدّى الى تفوهه ببعض الكلمات الغير لائقة في وجهه، إضافة الى الكلمات المهينة والخالية من تقدير الجهود التي كان قد بذلها له.

تناسى الفكرة تماماً بعد برهة من التفكير بها. لم يكن يملك أدنى شجاعة لكي يذهب الى هناك. في حين أنه كان يعلم أن والده سوف يسامحه على ما فعل، وسوف يحتضنه لمجرد رؤيته. ولكنه لم يكن يملك تلك الجرأة في المواجهة. كان يعلم أنه قد وصل الى درجة من التمادي التي تجعله غير قادرٍ على النظر في وجه والده.

استمر في القيادة دونما توقف. نظر الى ساعته اليدوية من نوع "روليكس" وكانت تشير الى الثانية وعشرون دقيقة. أخذ بالانعطاف والدخول بين الأزقة والبيوت والشوارع.

وجد نفسه فجأةً في شارعٍ فارغ، تكسوه البيوت على كلا الجانبين. كان منظر البيوت جميلة وذات تصميم يدل على الحرفية في العمل. كانت البيوت موزعة على الجانبين. الجهة اليمنى بيوتاً بيضاء والجهة اليسرى بيوتاً بُنية داكنة اللون.

كان كلّ بيت من البيوت يحتوي على حديقة جانبية بها شجرة واحدة. كانت البيوت متراصفة بشكل مرتب جداً. وكانت جميعها تشبه بعضها.

بيت، سور خشبي، حديقة جانبية.

جميع البيوت على كلا الجانبين كانت بهذا الشكل. نزل من السيارة التي أوقفها على مدخل الشارع وبدأ بالمشي بخطوات يشوبها الصمت. نظر الى البيوت جميعها بالترتيب. كانت البيوت فارغة تماماً. كان هناك ستة بيوت موزعة ثلاثةً ثلاثة على الجانبين. ولكن الغريب أنه لا يوجد أحد في تلك المنازل. الحي بأكمله فارغ. فكر قليلاً: ما هذا المكان؟ ما الذي جعله فارغاً هكذا؟ ما الذي اتى بي إلى هنا؟

كان يَنظر بصمتٍ شديد الى الشارع بأكمله. كان وَقعَ خُطوات حذائه يصدر صدىً يُسمع بوضوح تام. استمرَّ بالتلفّت بدهشة مرتعشة. فكر: ما هذا المكان الغريب؟ الصمت في كل مكان، لا شيء يَدلُّ على وجود حياة هنا.

جوليا

على رصيف إحدى الشوارع الوضيعة استيقظت (جوليا) لتجد نفسها ملقاة على حافة الطريق. علمتْ أنها أعادت الحادثة التي فعلتها مرة واحدة قبل أشهر. كانت قد شربت الكحول بدرجة كبيرة. إنها تعلم أن كأساً واحداً أو كأساً ونصف قادراً كل المقدرة على إغراقها في غيبوبة عميقة. ولكنها لا تعطي بالاً لهذا الأمر. انتشلت نفسها بقوة لكي تجلس باستقامة. كان رأسها يدور ومعدتها تشعرها برغبة في الاستفراغ. وكانت اضاءات الشوارع والسيارات ترهق عيانها المتعبتين. شعرت بخدرٍ بيدها اليمنى. أيقنت أنها كانت تنام عليها طوال تلك المدة. كانت رؤيتها ضبابية، إضافة الى أنها كانت تنزعج من الأصوات الصادرة عن عجلات السيارات المارّة في الطريق.

أغمضت عيناها قليلاً لتحصل على بعض التركيز. وضعت يداها على رأسها من الألم. كانت بحاجة الى وعاء كبير من القهوة لكي تحصل على بعض الوعي.

أرادت الوقوف للذهاب ولكنها سرعان ما أن عادت الى وضعيتها السابقة. لم تقدر على الوقوف لبضع ثوانٍ. كانت في حالة مزرية. بدأت بِلوْم نفسها على ما فعلت، ولكنها أعادت التفكير مرة أخرى. وجدت أنها احتاجت لأن تصبح على هذه الحالة. كانت هذه رغبتها منذ أول رشفة شربتها.

بعض مرور بعض الوقت استطاعت أن تتحكم في توازنها بمساعدة عامود كهربائي تمسكت به. ها هي تقف باستقامة وشموخ الآن. بدأت بالحبو كطفل يتدرب على مشي أولى خطواته، كانت تمدّ يداها قليلاً أمامها بارتجاف. فكرت الى أين تريد الذهاب وهي بهذه الحال في هذه الساعة المتأخرة جداً من الليل. لقد مضى على منتصف الليل وقتاً طويلاً. كاد النهار أن يحين. ولكن السماء ما زالت تكتسي اللون الأرجواني.

قررت في نهاية الأمر أن تعود الى البيت. لكنها خشت أن تكون والدتها مستيقظة تنتظرها. كانت تخشى أن تراها أمها المريضة على هذه الحال. لم تكن ترغب أن تجعلها تقلق أو تشكّ بشيء سيء.

وصلتْ الى مدخل الحي المؤدي الى منزلها بعد أن وجدت سيارة أجرة بانتظارٍ شاق. أخذت بالمشي كمن يتدحرج على لوحٍ خشبي. لم تستعد توازنها جيداً بعد. عندما اقتربت قليلاً من بيتها، لاحظت أن هناك حركة غريبة نوعاً ما في هذا الوقت من الليل المتأخر جداً. عندما وصلت تماماً، اتضح أنها كانت تتخيل ذلك لا غير.

حاولت الدخول بتسلّل. لم تكن ترغب بإحداث أي صوت، حتى إن كان خفيضاً. ها قد نجحت بذلك. بعد أن دخلت الى غرفتها، ارتمت على السرير بقساوة. بقيت تتصفّن بسقف الغرفة. راودتها فكرة أن تذهب لترى والدتها إن كانت نائمة، أم أنها لا تزال مستيقظة. ثم رأت أنها فكرة غير سديدة، فقد عملت جهدها كي لا توقظها وتراها على هذا الحال.

لم تعلم جوليا ما السبب الكامن وراء ادخال نفسها بهذه الحالة. كانت ايضاً لا تزال تعاني من ألم الرأس الذي يشعرها وكأن هناك حفلاً موسيقياً صاخباً داخل رأسها، أو أن هناك نجاراً يدقّ مسمارا داخل جمجمتها. كان الألم يزداد عند استلقائها على جانبيها الأيمن والأيسر. وكان الاستلقاء على ظهرها وجعل رأسها في المنتصف يريحها قليلاً. فكرت بتناول قرص دواء مهدئ، ولكنها خشيت من تفاعل الدواء والكحول معاً، ما قد يسبب تسمماً معوياً.

حاولت النوم لكنَّ أجفانها كانت تأبى أن تغلق. ومع استمرار ألم الرأس القاتل، أصبحت ليلتها الجميلة مكتملة تماماً.

كانت غيوماً من الأفكار تتلبّد فوق رأسها في آنٍ واحد. لم تكن تسيطر عليها. لقد قضت يوماً طويلاً ومتعباً في المطعم. فقد عملت على ما يفوق الخمسمائة وجبة. استمرت في وضع الوجبات وإزالتها عن الطاولات، بعدها كانت تقوم بمسح جميع الطاولات وتنظيف الارضية. كانت تحصل على مالاً اضافياً مقابل ذلك. وقد اعتادت أن تفعل هذه المهمة مرتين أو ثلاثة في الأسبوع.

استمرت في التفكير بالطريقة التي تسير عليها حياتها. كانت تشعر أنها لا تعيش حياة لائقة. فمنذ أن أصاب أمها المرض، وأصبحت غير قادرة على العمل بالحياكة التي كانت تمارسها قبلاً، أصبحت المسؤولة عن تأمين المال والدواء لوالدتها. لم تكن تملك أباً، أو إنها كانت تعتبر نفسها كذلك. فمنذ أن تركهما وسافر بعيداً وهي كانت في الثانية من عمرها، اهتمّت والدتها بتربيتها، فلم يكن لديها سواها.

شعرتْ أنّ عليها أن تكتشف طريقة أخرى لتمضي بحياتها. كانت فتاة في الواحدة والعشرين من العمر. يائسة، ذابلة، مرهقة وكئيبة. هكذا كانت تصف نفسها كل ليلة. كانت تحاول نسيان هذه الأفكار بإشغال نفسها بالعمل لوقت متأخر. وفي بعض الأيام التي تهاجمها أفكارها بقوة، وتفترس زوايا الذكريات لديها، كانت تجد الكحول مهرباً. لم تكن تشرب الكحول مع أحد أو أمام أحد. كلما أرادت ذلك، تجد لها مكاناً خاوياً كي تترنح فيه، وتفقد وعيها تماماً.

اتّخذت قراراً بعدم الذهاب للعمل غداً، إنه الأربعاء، فكّرت أنها ستعمل الخميس والجمعة عملاً اضافياً لتعويضه. كانت تريد أن تقضي يوماً للراحة في المنزل. أو أن تذهب خارجاً لقضاء بعض الوقت وحيدة تماماً وخالية من الأفكار المقيتة.

العاشرة والنصف صباحاً

استيقظتْ بعيون متثاقلة، شعرت أنها تريد قضاء يومين آخرين واضعةً رأسها على الوسادة المريحة. عادت للنوم قليلاً لبضع ثوان، ثم دفعت نفسها للاستيقاظ.

بعد أن غسلتْ وجهها بالماء البارد جداً، قررت الاستحمام لكي تشعر بحال أفضل. اتجهت الى المطبخ بعد ذلك وأعدّت كوباً من القهوة السوداء.

قبّلت والدتها التي كانت تجلس في غرفة المعيشة الصغيرة تشاهد بعض برامج التلفاز. سألتها والدتها:

متى وصلتِ بالأمس؟ ولماذا لستِ في العمل الآن؟ ظننتُ أنكِ قد ذهبتِ. لقد انتظرتكِ حتى منتصف الليل، وعندما لم تأتِ فكّرتُ أنكِ ربما قد أخذتِ عملاً اضافياً، مع العلم أنكِ قد فعلتِ ذلك في اليوم السابق.

وجدتْ جوليا ذلك مناسباً، ان تقول لوالدتها أنها كانت تعمل لوقتٍ إضافي، كان الجواب الأنسب الذي لم يخطر لها.

-أجل ماما، لقد عملتُ لوقتٍ إضافي. المطعم كان ممتلئاً جداً بالأمس، ما اضطرني الى البقاء. وأخذت اليوم إجازة كي أجلس قليلاً للراحة.

حاولتْ جوليا تفادي موضوع السؤال والجواب المعتاد من والدتها. ماذا سوف تحضّري للغداء؟

-لا أعلم، أفكر أن أحضّر المعكرونة. ولكن ليس لدينا صلصة حارة كما تحبينها.

-لا تقلقي ماما، سأذهب لشراء واحدة. أتريدين شيئاً آخر؟

-لا عزيزتي، لا تتأخري كثيراً، سوف أضع المعكرونة في قدر الماء ريثما تعودين.

الثانية عشرة والربع

بعد أن انتهت جوليا من الغداء، أخبرت والدتها أنها ستخرج لقضاء بعض الوقت. ذهبتْ الى تلّة عالية كانت تحبّ أن تجلس عليها

وتشاهد البحر من الأعلى بينما نسائم الهواء تحرّك خصلات شعرها المنسدل. كانت تفرغ رأسها من جميع الأفكار التي تؤرقها.

شعرت أنها اكتفت من الجلوس هناك. نزلت الى الشارع. أخذت تمشي بخطوطٍ مستقيمة. اشترت مخروطاً من المثلجات، وتناولته بشهية مفتوحة. ثم اشترت بالونات الهيليوم، اشترت عدداً كبيراً منهم، شعرت أنها عادت طفلة صغيرة تشتهي كل شيء. كانت تجرّهم خلفها وهي تمشي مسرعة بابتسامة عريضة على وجهها. كانت تضحك كطفلة في السابعة من العمر.

دخلت الى حديقة اطفال، كان عدداً كبيراً من الاطفال يتواجدون هناك. فكّت الشريط الذي يربط البالونات، وبدأت بتوزيعها على الأطفال.

بعد ذلك، دخلت الى مركزٍ تجاري. أرادت أن تلعب لعبة التقاط الدمى. كانت قد لعبتها مرة بصحبة والدتها لكنها لم تحاول إلّا مرة واحدة آنذاك. أرادت ان تلعب وتحاول الى أن تقضي رغبتها. وضعت القروش داخل الآلة وبدأت بالمحاولة.

هاد قد التقطت عدداً لا بأس به من الدمى. أخذت توزعها على كل طفل تراه داخل المتجر. وكان الأطفال يفرحون بذلك، وكذلك أمهاتهم.

ذهبت الى أماكن كثيرة كانت تتمنى أن تذهب إليها منذ زمن، لكنها لم تكن تجد الوقت المناسب لفعل ذلك. فأغلب أوقاتها كانت تقضيها في العمل على توزيع الوجبات على الطاولات. أرادت أن تخرج من ذاكرتها كل هذا.

في النهاية، ودون أدنى انتباه، وبينما هي تمشي وتتنقل من مكان الى آخر، ومن شارع الى آخر، ومن منطقة الى أخرى. وجدت نفسها أخيراً هناك.

الواحدة والنصف ظهراً

كانت تنظر بدهشة خالية من التعبير. لقد وصلتْ الى هذا المكان الصامت. لم يكن هنا أي صوت أو حركة. لا صوت لأي شيء. وكأن الدنيا اختفت عند هذا المكان.

لا يوجد مظهر من مظاهر الحياة الطبيعية في هذا المكان. فقط بيوتاً مرصوصة على كلا جانبي الشارع. بيوتاً بيضاء وأخرى بنيّة. سألت بدهشة خافتة: ما هذا المكان؟ كيف وصلتُ الى هنا؟

مشت برويّة في وسط الشارع. نظرتْ، سماء تسودها الضبابية، بيوت صامتة وخالية من السكان، شارع فارغ تماماً. لم يكن يبدو أن هناك أي سيارة قد مرّت منه حتى. أرضاً معبدة ونظيفة تماماً. لا آثار لدعسات بشر، أو لعجلات سيارات أو شاحنات ثقيلة.

أخذت ترفع يداها وتتحسّس وجهها وشفتاها بخوف. يا تُرى، أم أنّني!

لم تكن تعلم ما يجب عليها أن تقول، توقفت قليلاً عن التفكير، وأخذت بخطوات مرتبكة تمشي الى نهاية الشارع.

القسم الثاني

لحظة الحقيقة... اللقاء الكبير

لم يعلم كل من أنس وبسّام وجوليا أنهم وصلوا الى نفس المكان. وأن القدر قد ساقهم للقاء أنفسهم في هذا المكان الخاوي. لم يكن أحداً منهم قد رأى الآخر بعد، كل شخص منهم كان قد وصل في وقتٍ مختلفٍ تماماً عن الآخر. ولكنهم وصلوا في اليوم ذاته والى المكان ذاته.

ثلاثتهم لديهم حياةً مختلفة تماماً عن الآخر. ثلاثتهم قد عاشوا ظروفاً أدّت بهم للذهاب هرباً الى أي مكان، ولكنهم لم يعلموا ولو للحظة أنهم قد يصلوا الى مكان يتيهون فيه.

كان لا بد لهم ان يلتقوا. لا بد لهم ان يجدوا أنفسهم هنا. لم يكن أحداً بينهم يعرف الآخر. وليس هناك احتمالاً صغيراً بأنهم قد تصادفوا في مكانٍ ما. كانوا غرباء تماماً عن بعضهم البعض، ولكنهم كانوا مترابطين تماماً أيضاً.

***

في هذه الأثناء، كان الثلاثة في نفس المكان، ولكن أحداً لم يرى الآخر بعد. كان كل شخص منهم ذاهباً الى مكان ما. يبحثون عن شيءٍ ما، عن مخرجٍ ما، عن جوابٍ ما، الى أن جاءت هذه اللحظة.

في الوقت ذاته التقى الثلاثة في وسط الشارع الخاوي. أصابتهم الدهشة حين رأى كلٌّ منهم الآخر. لم يكونوا يتوقعون أن يجدوا أحداً في هذا

المكان المعزول عن العالم- حسبَ ما تبادر لهم- ولكنهم وجدوا أنفسهم في النهاية.

عند اللقاء الأول، بقوا واقفين في مكانهم، بدا لهم كأنهم التقوا أشباحاً، لم يكن أحداً منهم يصدق أنه قد رأى أحداً في النهاية. ولكنهم سرعان ما أذهبوا الذهول الغير مبرّر عن أنفسهم واقتربوا من بعضهم البعض.

جوليا:

مرحباً، هل لي أن أسأل كيف وصلتم الى هنا؟! أم أنّكم من ساكني هذا المكان؟

أنس:

ربما لن تصدقوا ذلك، ولكنني لا أعلم ما الذي أتى بي الى هنا، لم ألحظ كيف وصلت، وإذ بي داخلٌ هذا المكان الذي لا أعرف أي كلمة لوصفه.

بسّام:

مثلي تماماً، لم أعلم كيف دخلت الى هذا المكان، كنت ذاهباً بسيارتي وإذ بي هنا. لم أعلم كيف جئت، أو من أين ظهر هذا المكان. حصل كل شيء فجأة.

جوليا:

إذاً لقد حصل الأمر ذاته لثلاثتنا. وأنا مثلكم، كنت خارجةً للتنزه، ولم أعلم كيف وصلت. كل شيءٍ كان سريعاً. وكأن شيئاً ما سحبني الى هنا.

لملمَ الثلاثة أنفسهم، وشعروا ببعض الراحة، إذ ما حصل لم يحصل لشخص واحد، وإنما حصل لهم جميعاً، وهذا أفضل. ففي بعض الأمور، عندما تصبح المعاناة جماعية، تكون أقل ايلاماً من أن تحصل لشخص واحد. فعندما يجد الشخص أشخاصاً آخرين يحملون نفس المعاناة التي يحمل، يشعر وكأن هذا الأمر قد أصبح بمثابة ظرف جماعي، أو لعبة مثلاً. كما في لعبة الاختباء، فعندما يُلتقط شخص واحد ويبقى الآخرون مختبئين، يشعر بالظلم والاستبداد، ولكن عندما يتم ايجاد الجميع، يشعر ذلك الشخص بالفرحة والسرور ولذة الانتصار، فليس هو الغبي الوحيد الذي حصل له هذا الأمر، ولكن قد حصل هذا مع الجميع، إذاً فكلّهم أغبياء. وهذا ما يجعل أصحاب المصائب عندما يلتقون بعضهم البعض، يشعرون ببعض الراحة، وكأنهم وجدوا راحتهم بأن غيرهم يعاني مثلهم.

حاول ثلاثتهم التفكير عميقاً بالأمر. ما الذي قد يجعلهم هم الثلاثة لا غير، يلتقون في هذا المكان الذي لا يعرفون أن يطلقون عليه اسماً حتى. ما السبب الكامن وراء هذا اللقاء، أهو لقاء مرتب له مسبقاً، أم أنه القدر الذي ساقهم الى هنا؟ وما الذي يريده القدر من ثلاثتهم حتى يجمعهم في مكان واحد هم الثلاثة؟ أهو أمر مشترك بينهم، أم أنه ذنبٌ اشتركوا فيه ثلاثتهم دون علمٍ أو تخطيط؟

ظلّت هذه الأسئلة تراودهم فرداً فرداً، ولكنهم لم يكونوا يتشاركون هذه الأسئلة سوياً، كانوا يفكرون بها بصمت.

بعد برهة، نهضَ بسّام بعد أن كان منغمساً بالتفكير العميق- وهذا كان حال جوليا وأنس- ثم قال لهم:

-لا نريد أن نبقى جالسين هنا دون حركة، دعونا نجد حلاً ما، دعونا نبحث عن مخرج من هذا المكان.

ردت جوليا:

-لا تحاول عبثاً، منذ أن وصلتُ هنا وأنا أبحث، أبحث عن أي شيء، لم أجد شيئاً، بحثت كثيراً ولكنني لم أصل لشيء. كل ما وصلت إليه هو نهاية ذلك الشارع، ولا شيء بعده. إنه مكان مغلق.

استشاط بسّام غضباً:

-ما الذي تقولينه؟ كيف يكون مكاناً مغلقاً ونحن قادرون على رؤية السماء فوقنا؟ وكيف يكون مكاناً مغلقاً ونحن نستطيع أن نتنفس الهواء وقادرون على التمتع فيه، إنه يتخلّل أجسادنا، ألا تلاحظين ذلك؟

وقف أنس بعد أن كان صامتاً لوقتٍ طويل، مشى الى الأمام خطوتين، ثم التفت:

-علينا التفكير في الأمر مليّاً، يجب أن نعودَ من البداية، يجب أن نراجع كل ما حصل منذ البداية حتى نصل الى نقطة التقاء تُوجِّهنا الى ما نحن ذاهبين إليه. لا نريد أن نفكّر بعبثيّة، فما حصل معنا ليس شيئاً عبثياً. ألا تلاحظون أننا نجلس منذ ما يقارب الساعة ولم يأتِ أحدٌ غيرنا الى

هنا؟ هذا يعني أننا نحن المستهدفون من كل هذا، يجب أن نعيد التفكير، يجب أن يسردَ كل منا الأحداث التي حصلت معه حتى نعلم ما الذي يجب فعله، او ما السبب الذي أدى الى هذا كي يحدث. إنه أمر بالغ الأهمية، أو أننا سنبقى هنا للأبد دون جواب ودون خروج.

القسم الثالث

استعادة الأحداث – أنس

بعد أن تلفّظ أنس بهذه الكلمات، جعل كلاً من جوليا وبسّام يتريّثان قليلاً، وجعل بسّام على وجه التحديد يرجِعُ أدراجه، ويفكّر بعقلانية قليلاً، بعيداً عن التسرّع والهمجية.

قال بسّام:

وما الفائدة من إعادة سرد ما حصل معنا قبل الوصول الى هنا؟ ما الذي سيضيفه هذا الأمر؟ لا أرى ذلك متصلاً بما يحصل الآن.

ردّ أنس:

بلا، بل أشعرُ أن كل الأمر مرتبطٌ بما حصل معنا قبل المجيء الى هنا. ليس ضرورةً أن يكون قد حصل قبل يوم من المجيء أو قبل يومان، ربما ما حصل قد حصل قبل سنوات ونحن لا نعلم، لذا نحن مضطرون أن نستذكر ما حصل قبل يوم أو يومان، ثم علينا أن نستذكر اموراً مفصلية أو أحداثاً كان لها تأثيراً على حياتنا من قبل، ربما يكمن الجواب في الماضي، لن نعرف ذلك إلا إذا هدأنا وتصرفنا بعقلانية وذكاء.

بعد أن كانت جوليا شاردة لوهلة، ومنغمسة في التفكير بما قاله أنس، استعادت تركيزها وأكّدت على ما يقول:

-ما يقوله صحيح. يجب علينا أن نركّز قليلاً، يجب على كلٍّ منا أن يذكُر ما حصل معه كي نصل الى نقطة مشتركة ترشدنا الى شيء. إذا بقينا هكذا دون ان نفعل شيئاً فلن يتغير الأمر، وربما سنقضي بقية حياتنا هنا.

بعد أن وصلوا الى نقطة مشتركة، واتفقوا عليها، وقرّر كل واحدٍ منهم أن يذكر ما حصل معه قبل الوصول الى هنا، قرر أنس البدء بالكلام:

-استيقظتُ في الصباح كأي يومٍ اعتيادي من أيام حياتي. تناولت فطوري ثم ذهبت الى العمل. قضيت ساعات العمل ثم خرجت. لم أذهب الى المنزل مباشرة لأنني كنت أريد التنزه والخروج قليلاً، إضافة الى أنني اعيش وحدي في المنزل، فلم أكن مضطراً للعودة في وقت محدد. ذهبتُ الى حديقة كنت معتاداً للذهاب إليها كلما أشعر بالضيق. فذهبتُ وجلستُ لنصف ساعة تقريباً، بعدها اشتريت كوبَ قهوة وبدأت أمشي. لم أكن ذاهباً الى أي مكان، ولم أكن قاصداً أي مكان، فقط كنت أمشي في الشوارع لأخفّف بعض الضغط عن نفسي. وفجأة، رفعت رأسي عن الأرض، فعادتي وأنا أمشي اكون شارداً في الأرض ولا أركّز في الطريق كثيراً، رفعت رأسي فجأة وإذ بي في هذا المكان، لم أعرف كيف دخلت الى هنا، ولم أعرف طريقاً للخروج. وبعدها بوقتٍ قصير التقينا معاً في الشارع، وها نحن ذا.

كان كل من جوليا وبسّام يستمعون بتركيز، فلقد ذكر أنس حتى التفاصيل الصغيرة، ولم يجدوا شيئاً غريباً في قصته، بل على العكس

تماماً، وجدوا أنه يوماً عادياً جداً لشخصٍ عادي. لم يكن هناك ما يَلفت كثيراً الى وجود شيئاً غريباً أدّى الى وجوده هنا.

بعدما انتهى أنس من الكلام، سألته جوليا:

-ألم تلاحظ ابداً كيف وصلتَ الى هنا؟ ألم تلاحظ حصول شيئاً غريباً قبل أن تجد نفسك داخل هذا المكان؟ شيئاً جعلك ترفع رأسك مثلاً، أو شيئاً جعلك تلاحظ أنك وصلت الى مكانٍ غريب مثلاً؟

رد أنس بالنفي:

-لا، لم ألاحظ شيئاً أبداً، بل حتى أذكُر أنني كنتُ أسمع أصوات المارة وأصوات السيارات و... مهلاً، نعم، الشيء الوحيد الذي أذكُر أنه جعلني أرفع رأسي فجأة هو الهدوء الذي أصبح فجأة. ففجأة لم أعد أسمع أيّ صوت، كان كل شيءٍ ساكناً، فشعرت بأن هناك شيئاً غريباً، رفعت رأسي لأرى، وإذ بي أرى المكان هنا، تفاجأت في البداية كثيراً. قلت ما هذا المكان، وما هذا السكون التام الذي هنا. هكذا لاحظت.

قال بسّام:

-إذاً لم تلحظْ أنك وصلت هنا إلا عندما اختفت كل الأصوات، فرفعتَ رأسك حينها لترى ما الغريب في الأمر، فوجدت أنك في هذا المكان. أهذا صحيح؟

رد أنس:

-أجل، هو كذلك بالضبط.

قالت جوليا:

-إنه لشيءٌ غريب، فلا شيء بدا غريباً أو غير عادياً، حسبَ ما وصفتْ، كل شيء كان طبيعياً. لم يظهر أي شيء يدلّل على وجود أمرٍ آخر.

بسّام:

-حقاً لم يكن شيئاً غير عادي. كان كل شيءٍ يبدو طبيعياً.

أنس:

قلتُ هذا، إنّي أعلم نفسي، إنني شخصٌ دقيق الملاحظة، فلوْ حصل شيئاً غريباً معي لكنت أول من يعرف، ولكن كلَّ شيءٍ سارَ طبيعياً.
وأضاف:

-حسناً، هاد قد قلت كل ما لديّ، والآن يجب على أحد منكم أن يخبرنا ما جرى معه، كما فعلت أنا تماماً، ونريد أدق التفاصيل، فأي شيء قد نغفل عنه قد يكون هو سبب عدم خروجنا من هنا.

استعادة الأحداث - جوليا

قرّرت جوليا مباشرة أن تخبر أنس وبسّام بما حصل معها قبل وصولها الى هنا، كانت تشعر بأن هذا يمكن أن يفيدهم بشيءٍ ما، قالت:

-سوف أخبركم بما حصل معي قبل وصولي الى هنا. وأعدكم بأنني سوف لن أنسى شيئاً، بل في الأصل، إنني لن أنسى هذا اليوم ما حييت، لأنه كان يوماً مميزاً لي منذ وقتٍ طويل.

ردّ بسّام وأنس واحداً تلو الآخر:

-حسناً إذاً، تستطيعين البدء بالحديث الآن.

جوليا:

استيقظتُ من نومي بعد أن قضيتُ ليلةً طويلةً وشاقة في العمل بالمطعم. بعدها عدّت الى المنزل وكان النهار يكاد أن يحين. بعد أن استيقظت، أخذت حماماً وذهبت لأشتري بعض الأغراض لأمي كي تعدّ الغداء. وبعد أن تناولت الغداء أخبرت أمي أنني سأخرج للتنزه قليلاً، لأنني كنت قد أخذت اليوم إجازة. عندما خرجت للتنزه، ذهبت لعدة أماكن. ذهبت الى المراكز التجارية الكبيرة، وإلى حدائق الأطفال، والى المتاجر المتعددة. كنت أريد أن أمضي يوماً ممتعاً. اشتريت بالونات الهيليوم ووزعتها على الأطفال في الحدائق. ثم لعبت لعبة التقاط الدمى داخل المركز التجاري، وما التقطته من ألعاب وزعته على الأطفال

الذين وجدتهم في المركز. بعد ذلك بقيت أمشي وأمشي، كنت أريد الترفيه عن نفسي فقط. بعد ذلك، وبينما كنت اتنقل في الشوارع وبين الأزقة والمحلات وجدتُّ نفسي هنا أيضاً. لم أعلم كيف وصلت ومن أين ظهر هذا المكان. في البداية، كنت مذهولة، ولكن عندما كان المكان هادئاً وصامتاً بشكل غريب، أتتني الريبة والخوف. إذ لم يكن في المكان صوت أو حركة. لم يكن فيه أثراً يدل على وجود أحد، وبقيت أدورُ في المكان حتى التقينا هنا في الوسط، وهذه كانت قصة مجيئي.

قال أنس حائراً:

يا إلهي ما هذا الأمر، إنه يزداد تعقيداً. لا شك بأن هناك شيئاً غامضاً وغريباً يحدث. إن هذه هي المرة الأولى التي لا أستطيع أن أفكر بها بشكل سليم. إن هذا الأمر يجعلني بعد أن أفكر بأمر، اتجاهله تماماً. إنه لشيء مريب حقاً

أضاف بسّام موافقاً أنس:

أجل، إنه جدياً لأمر غريب. لقد جعلني لا أستطيع أن أفكر به إلا وكأنه غير حقيقي، أشعر أن هناك شيئاً غريباً جداً يحدث، لا أشعر أن هذا شيء يحدث في الحياة الحقيقية. إنه شيء وكأنه غير متصل بالواقع، لا أعلم ولكنني أشعر أن هناك شيئاً غير صحيحاً.

بعد أن تكلّم كل من أنس وبسّام بهذه العبارات التي تحتوي على قدرٍ كبير من الريبة والخوف والشعور بالضياع. بدا على وجه جوليا علامات

التعجب والاستغراب. وبصوت يميل الى الارتجاف أو ربما كان خوفاً من السؤال، تدخلت جوليا لتقطع حديثهما بسؤالها:

-ماذا؟ لماذا أصبحتما تتكلمان هكذا؟ هل هناك شيئاً قد اكتشفتماه من حديثي؟ هل هناك أمراً غريباً أو مريباً ظهر في قصتي ولم ألحظ ذلك؟

كان أنس تائهاً بأفكاره، يحاول أن يفكّر بالأمر ملياً، كان يشغل فكره كل الأمور التي حصلت معهم، ولكن صوت جوليا قد قاطعه بسؤالها، ما دفعه الى أن يلتفت إليها بسرعة خاطفة أدت الى شعورها بالخوف، وكأن نظرته كان فيها شيئاً من التهديد أو اللوم.

ولكن ما ان استعاد وعيه قليلاً، نظر الى جوليا، وكان وكأنه لا يزال شارد الذهن، إلا أنه تخلص من ذلك بفرك عينيه بيده، ثم تنهّد قليلاً ورد عليها:

-لا، لا يوجد شيء مريب، ولكن ما دفعني الى قول كل هذا هو أنه كلانا وصلنا الى هنا دون أن نلحظ ذلك. لقد لاحظت أيضاً أن مجيئنا الى هنا كان بغتة، كان سريعاً جدا لدرجة أننا لم ننتبه لحظة دخولنا هنا، هذا ما كان يقلقني، أخشى أننا أصبحنا في مكانٍ بعيدٍ جداً عن كل شيء، هذا ما أفكر به الآن، هذا ما يشغل تفكيري.

بعد أن انتهى أنس من كلامه، عاد الثلاثة لينظر كل واحد منهم الى الآخر دون كلام، لم يكونوا قادرين على التفوه بأي كلمة، لقد جعلهم هذا الأمر صامتين وهم محمّلين بالكثير ليقولوه. كان لديهم الكثير من الأسئلة، والكثير من الملاحظات التي لم يستطيعوا أن ينطقوا بها حتى.

لقد جعلهم التفكير في هذا الأمر متعبين جداً، كانوا يشعرون بالإرهاق التام عند التفكير بما حلّ بهم. لم يكن شيئاً واضحاً، لم يكن هناك أي تفسير لهذا الشيء. كان كل شيء وكأنه جاء من العدم، وأصبح حقيقة.

كانت ترعبهم فكرة أنهم أصبحوا محتجزين في هذا المكان، لقد شعروا أنهم منفيين عن كل العالم، كانوا مشحونين بالأفكار السلبية المميتة. لقد توقفوا عن محاولة تفسير الأمر. وصلوا الى متاهة كبيرة جداً، لم تكن إحدى أفكارهم تنقذهم، لم يكن هناك كلاماً قادراً على جعلهم يشعرون بالراحة ولو قليلاً.

وبعد فترة طويلة كانوا يجلسون فيها كل شخص بمفرده، يفكرون ببعض الأمور، ويأكل أدمغتهم التيه، كان لا بد لهم أن يعودوا للتواصل مع بعضهم.

كان أنس جالساً ضاماً ذراعيه الى صدره، وكان بسّام يحملق في الأرض وهو يضع يديه على رأسه. وكانت جوليا تستلقي على الأرض وتمد قدميها على طولهما، وهي مستندة بظهرها على الأرض وتنظر الى السماء. كانوا في حالة من اليأس التام. لم يكونوا يريدون أن يستمعوا الى أي كلمة من أي شخص منهم. كانوا جلَّ ما يريدونه هو الصمت فقط، الصمت التام.

بعد مرور بعض الوقت، استطاع بسّام أن يعود الى حالته الطبيعية قليلاً. كان كل من أنس وجوليا لا يزالان صامتان. كانا لا يزالا على وضعيتهما السابقة. حالة من الشرود والسكوت التام.

مشى بسّام قليلاً في الشارع. بدأ بتحريك قدميه قليلاً وكان يطقطق عظام يديه ورقبته. كان يبدو عليه التشنج من الجلوس الطويل على وضعية واحدة دون حراك.

بعض أن أمضى بعض الوقت، واستراح قليلاً من كل ما عايشوه في اللحظات السابقة، توجّه الى أنس وجوليا وقال لهم:

-مرحباً أنتم، هل تسمعونني؟ عودوا قليلاً الى هنا. ألا تريدون أن تسمعوا قصتي بعد؟ أعدكم أن قصتي فيها الكثير من الإثارة. سوف تستمتعون بها جداً. سوف تشعرون وكأنكم تشاهدون فيلماً سينمائياً. ألا تصدّقونني؟ عليكم ان تسمعوها فقط. وبعدها ستجدان أنني لم أكن اكذب.

استعادة الأحداث – بسّام

جلستْ جوليا باستقامة بعد أن كانت مستلقية تماماً. وكانت تظهر بأنها على استعداد لسماع ما سيقوله بسّام.

أنس كان لا يزال شارداً، بدا وكأنه لم يسمع أي كلمة مما قاله بسّام.
وضعت جوليا يدها على كتف أنس وهزّته قليلاً كي يعطي انتباهه لهم.
عندها قالت جوليا:

-مهلاً لحظة. ألا تلاحظون شيئاً؟ نحن نجلس معاً منذ فترة ولكنّنا ما زلنا لا نعرف أسماء بعضنا. كيف لم يخطر لنا ذلك؟

رد بسّام متعجباً:

-أجل. كيف لم يتبادر لنا هذا من قبل. على أية حال، اسمي بسّام.

جوليا:

-وأنا جوليا. سررت بلقائك، رغم أن الظروف غير ملائمة للسرور.
أضافت جوليا مازحة بيأس.

ابتسم بسّام ابتسامة بالكاد قد ظهرت، ثم أضاف قائلاً:

-وأنت أيها الصامت، هل لنا أن نعرف اسمك؟

رفع أنس عينيه للأعلى، وكان ينظر الى بسّام نظرة فيها بعض الغضب. ثم وقف على قدميه وتقدم الى الأمام قليلاً. كان يبدو أنه لن يجيب على سؤال بسّام أبداً. ولكن بعد فترة وجيزة التفت الى الوراء وقال: اسمي أنس، سررت بلقائكما. ولا تنعتني مرة اخرى بالصامت، فما يحصل معنا هنا يجعل شخصاً لا يتوقف عن الكلام يصمتْ. والآن، ألا تريد أن تخبرنا بقصتك المثيرة تلك؟

ردَّ بسّام مبتسماً:

حسناً، لكَ ذلك.

عندها بدأ بسّام بالتجهّز للبدء بسرد قصته. وكان كل من أنس وجوليا ينتظران بترقُّب، بعدها بلحظات بدأ بسّام بالكلام:

-حسناً، قصتي من البداية هي أنني كنت أعمل موظفاً في شركة حاسوب كبيرة. وكنت موظفاً في برمجة وتطوير الحواسيب. وفي يوم، أسّستُ نظاماً يسمح للشركة بعرض اعلاناتها في جميع البلدان دون أن يكلفها ذلك بنساً واحداً. ولقد نجح ذلك النظام بجدارة. وأخذتْ أرباح الشركة بالصعود بدرجة عالية، وأصبحتْ منتجاتها تظهر في جميع البلاد، ما أدى بالطبع الى زيادة نسبة المبيعات وبالتالي الأرباح الكبيرة. ومضى على ذلك النظام مدة سنتين وهو يعمل بدقة وجدارة عالية جداً. بالطبع كان النظام غير قانونيّ، وقد أخبرتُ أرباب العمل بهذا، ولكنهم لم يهتموا بذلك طالما أن النظام سوف يجلب لهم الأرباح. فقرروا أن يجربوه. وبعد نجاحه، أصبحتُ الموظف الأكثر تميزاً في الشركة. وللصراحة، لقد أعجبني الأمر، وهذا كان ما سعيتُ له منذ البداية.

ولكن هذا الأمر لم يدم طويلاً. فبعد سنتين تقريباً، اكتشفت الجهات المسؤولة عن مراقبة الشركات كنوع شركتنا حركة غير طبيعية في نشاط الشركة واعلاناتها. وبطريقة ما تم اكتشاف النظام الذي كنت قد أسّسته. ما أدى الى اغلاق الشركة بالكامل وتحويل جميع الموظفين فيها الى التحقيق. ولأنني كنت من أسّس ذلك النظام، كنت الشخص الذي تعرض للضرر الأكبر. بل ما حصل قد دمّر لي كل ما قد انجزته طوال مسيرتي المهنية. فلقد حجزَ البنك على أموال السنتين اللتين كان النظام فيهما فعالاً، واعتبرت أموالاً غير مستحقة، وتم الحجز على المنزل الذي كنت قد اشتريته بقرضٍ من البنك. وتم إرغامي على دفع كفالة كبيرة اضطررتُ فيها لدفع كل ما تبقى لي في حساب البنكيّ. وهكذا أصبح كل شيء كنت أملكه، لا أملك منه شيئاً. كل شيءٍ قد تدمر في يومٍ واحد. وبعد ذلك، كنت لم أعد أملك سوى سيارتي التي كنت قد اشتريتها قُبيل تأسيسي لذلك النظام. فقررت يومها أن أذهب بها الى أبعد مكان قد أصل إليه. وها أنا ذا هنا معكم. هذا أبعد مكان قد وصلتُ إليه، ويبدو أنني لن أخرج منه أيضاً.

ومرة أخرى، كان كل من أنس وجوليا مذهولان تماماً. لقد كانت قصة مثيرة بالفعل. إذ أنّهما لم يستطيعا أن يقولا أية كلمة لبسّام بعد أن انتهى. مع ذلك، فإنهما كانا على استعداد للقبول بأي أمر بعد الآن. فبعد أن سمع كل منهم حكاية الآخر، وجدوا أنهم جميعاً لم يكن لهم سبباً مباشراً بوجودهم هنا.

القسم الرابع

الذكريات الأليمة (1)

بدأ الثلاثة بسؤال أنفسهم، ما السبب الذي أدى بنا للوقوع بهذا المكان؟ ما سبب لقائنا نحن الثلاثة فقط هنا؟ ليس هناك شيئاً مشتركاً بين كل منا، ليس هناك قصة متشابهة حتى. إنه لأمر محيّر، من الواضح أننا لن نستطيع الخروج من هنا أبداً. ولن نستطيع حلَّ لغز هذا المكان.

كان ثلاثتهم في حالة مزرية. لم يكن باستطاعة أحد منهم الانقطاع عن اليأس. كانوا قد وصلوا الى أبشع مراحل الشعور بالضياع التام. وكأن جسدهم في مكان وأرواحهم في أماكن أخرى.

فكّر أنس:

هل سأعود يا تُرى؟ أم سأبقى هنا؟ وإن لم أعد، فليس هناك أحداً سيفتقدني أو يلاحظ غيابي. ربما سيلاحظون غيابي عن العمل، ولكن ليس هناك أحداً سوف يقلق لدرجة أن يحاول الاتصال أو المجيء الى المنزل، إن كانوا يعرفونه أصلاً.

وبينما كان أنس منشغلاً بتلك الأفكار، كانت جوليا أيضاً منغمسة بمئات الأفكار في رأسها. كانت قلقة على والدتها، وقلقة على ما سيحصل بها إن لم تعد من هذا المكان. شعرت بالخوف الشديد، ولم يكن بوسعها التفكير بشيء آخر. لم تعد تحتمل هذا الضغط كله، كانت في حالة من التيه، ومن انقطاع الحيلة.

فكر بسّام:

وماذا إن عدت، لن يحصل أي تغيير. فلقد فقدتُ كل شيء، لم أعد أملك شيئاً. ربما الأفضل لي أن أبقى هنا، لأنني إن عدت، سأكون مشرداً. لا منزل، لا مال، لا حياة. لماذا أسعى للخروج من هنا وأنا في حالٍ أسوأ خارجاً.

***

نهضت جوليا جزِعة، وبدأت بالزمجرة والغضب. كانت يائسة ومرهقة من كل ما حصل. لم تكن تسيطر على مشاعرها أو أفعالها، وسرعان ما انهمرت بالبكاء.

ظلّ أنس وبسّام ينظران إليها دون أن يفعلا شيئاً. نظرا الى بعضهما البعض بيأس تام. تركاها تفعل ما تشاء، فربما بعض البكاء قد يكون حلاً مناسباً في هذا الموقف.

بعد وهلة، توقفت جوليا عن البكاء، وبدأت باستعادة نفسها قليلاً. كانت تمسح دموعها وتتنفس بقوة. كانت لا تزال بقايا البكاء ظاهرةً على وجهها. إضافة الى ذلك، كان قلقها يزداد مع مرور الوقت. فبعد مدّة ستلاحظ والدتها اختفائها، وسيبدأ قلقها عليها.

قالت وهي تمسح عيونها بحُرقة:

ألن نفعل شيئاً حيال هذا الأمر؟ سنبقى جالسين هكذا دونما حركة؟ دون أن نبحث عن حلٍ ما؟ لا بد من وجود شيء، لا بد من شيء قد

غفلنا عنه. يجب أن نبحث في المكان مرة أخرى. ربما هناك أحجية علينا حلها لنخرج من هنا. ربما هناك سحرُ علينا إبطاله. تعويذة ما.

ردّ بسّام بسخرية:

أتظنين أننا داخل فيلم عن الأساطير القديمة، او عن الفايكنغ القدماء؟ نحن في الحياة الحقيقية. لا وجود لهذه الأشياء في الواقع. إنها خرافات لا وجود لها أبداً.

أضاف أنس:

أيضاً، لقد قلتِ ذلك بنفسك، قلتِ أنّكِ بحثتِ في المكان كلّه ولم تجدي شيئاً سوى نهاية الشارع ذاك. ومن الواضح أيضاً أنه لا مخرج من هنا. المكان كلّه مغلق. إنه كلّه بداية ونهاية، من المدخل ذاك، الى النهاية تلك. لا شيء آخر. حتى أنني أتعجب من وجود هذه البيوت. لا وجود لأي كائنٍ بشري هنا، ولا دليل أنه كان أحداً هنا من قبل. المكان كلّه وكأنه صمّم بالأمس.

عادت جوليا الى اليأس مرة أخرى، لم يكن لديها رداً مناسباً أو منطقياً لتردَّ على كلامهما. كانت في حالة من الحيرة الشديدة.

بعد أن أمضت دقيقة من الصمت الكامل، توجّهت الى أنس بكلامها:

-لقد قلتَ أنّك بعد أن خرجتَ من العمل لم تكن تريد العودة الى المنزل. وأنّك ذهبتَ للتجوّل خارجاً. سؤالي هو لماذا لم تعُد الى المنزل مباشرة حينها؟ لمَ كنتَ ذاهباً للتجوّل وحدك تماماً؟

شعر أنس بالدهشة من سؤال جوليا، إذ لم يكن يتوقع سؤالاً كهذا. فكر: لماذا أرادت أن تعرف سبب عدم عودتي الى المنزل؟

بقي صامتاً لفترة وجيزة، بعدها قرّر أن يجيبها بتجرّد تام:

-الحقيقة في ذلك اليوم كنت أفكر في الكثير من الأمور. وكما ذكرتُ سابقاً، فأنا أعيش وحدي تماماً. وكنت في تلك الفترة أعاني اكتئاباً شديداً. لم أكن أستطيع الجلوس لفترة طويلة في مكان واحد، لأنني كنت أفكّر في الكثير من الأشياء التي كانت تجعل حالتي تزداد سوءاً. فكنت أفضّل الخروج على البقاء وحدي في المنزل كي لا أشعر بالضجر والوحدة.

جوليا:

ولماذا كنتَ تعيش وحدك؟ ألا يوجد لديك أحد من عائلتك؟ أم أنك تعيش بعيداً عنهم؟

أنس:

كان لديّ أختٌ واحدة ووالدي ووالدتي، ولكنهم ماتوا جميعاً بحادث سير منذ ثمانِ سنوات، ومنذ ذلك الوقت أعيش وحدي.

ردت جوليا متعاطفة مع أنس:

أنا حقاً آسفة لذلك. لم أكن أعلم أنني سأذكّرك بأحزانك، ولكنني كنت أود أن أعرف بعض الأمور في سبيل اكتشاف طريقة لمساعدتنا على الخروج من هنا.

أنس:

لا بأس، أتعلمين؟ لقد اعتدتُ العيش وحيداً منذ ذلك الوقت. أجل اشتاق لهم في بعض الأوقات، ولكن الوقت يمسح كلَّ الأحزان. لا شيء يدوم مع الوقت، فقد وُجد الوقت لشفائنا وتخليصنا من كلّ الذكريات السيئة التي تلاحقنا. وأضاف، ولكن في بعض الأيام أفكر أنني لم أستطع التخلص من ذلك. كنت أسمع هذه الأشياء قبلاً، كل شيء يزول مع الوقت، وكل شيء يمضي. ولكن في الحقيقة، كل شيء يزداد ألماً مع الوقت. إذ كلّما قضى الإنسان وقتاً بصحبة آلامه، زادت وتضاعفت. إنها لا تذهب، لا شيء يذهب مع الوقت، وإنما يتراكم.

سألت جوليا:

وكم كنت تبلغ من العمر عندما ماتوا؟ وكيف تجاوزت تلك المرحلة؟

أنس:

-كنت قد انهيتُ الجامعة حديثاً. وفي ذلك اليوم، كنتُ بمقابلة عمل، وقد حصلت عليه. وعند عودتي الى المنزل لأخبر أبي وأمي بذلك لم أجد أحداً في المنزل. وكنت قد وعدتُ أختي بأن أجلب لها هدية إن حصلت على العمل. عندما لم أجد أحداً في المنزل، ذهبت لأسأل حارس المبنى إن كان قد رآهم. عندها قال لي أنه رآهم يذهبون بالسيارة. فصعدتُ مجدداً الى المنزل لأنتظرهم. بعد ساعة تقريباً، رنّ هاتفي، وعندما أجبتْ، كان صوتاً غريباً، سألني إن كنت أعرف شخصاً يدعى (توفيق عبد الرحمن). عندها أجبته نعم، إنه والدي. قال لي: لقد وجدنا

الشخص المدعو توفيق عبد الرحمن ومعه امرأة وفتاة صغيرة قد فارقوا الحياة إثر حادث سير مروّع، آسفون لذلك، ونرجو منك القدوم الى المستشفى. لقد كان هذا الخبر بمثابة صاعقة، لم أعرف ما سأفعل حينها. رميتُ بنفسي على الأرض وانفجرت بالبكاء. شعرتُ أن حياتي انتهت هناك، لم أكن قادراً على التنفس، ولم أكن أستطيع التفكير. لم أعرف ما عليّ فعله. ومنذ ذلك اليوم وحياتي منتهية تماماً. لا أشعر بأي شيء أفعله. ولا يهمني ما أفعل. ليس لأي شيء تأثيراً حقيقياً علي.

لم تعلم جوليا ما عليها أن تقول. كان لسانها قد عجز عن الكلام تماماً. لم تستطع قول أي كلمة مواساة أو شيئاً للتخفيف عن أنس.

بعد أن ساد الصمت لوهلة، كان بسّام أول من تحدّث. أراد أن يتكلّم مع أنس للتقليل من حدة الحزن الذي سيطر على الأجواء.

بسّام:

-هوّن عليك يا أنس، فلو أردتَّ أن تبحث عن كل من أصابه الحزن في هذا العالم فلن تحصي منه شيئاً. إن الحزن هو المسيطر على هذا العالم وليس السعادة. جميع الناس يعيشون الحزن أكثر مما يعيشون السعادة، وحتى أنَّ هناك البعض وهم يعيشون لحظات السعادة يفكّرون بالحزن الذي سيأتي بعدها.

ردّ أنس وكانت تسيطر عليه نبرة حزنٍ خافتة:

-أعلم هذا، أتظن أنني لا أعرف ذلك. ولكن عندما يفقد الشخص أناساً كانوا له بمثابة الحياة، يُصبح يرفض الحياة بكل ما فيها، تصبح الحياة

بالنسبة له مجرّد جحيم حارق، تحرق منه أجزاءً كل يوم حتى تبقيه رماداً في النهاية، وذلك الرماد هو الذي يعيش الحياة بتفاصيلها وليس الجسد الذي أُحرقْ.

في هذه اللحظة، اغرورقت عينا جوليا بالدموع، ولم تسيطر على نفسها، وأجهشت بالبكاء مرة أخرى. شعرتْ بالأسف والحزن الشديدين لما جرى لأنس وعائلته. ولم تستطع إلّا أن تتخيل أمها في تلك اللحظة، كانت تخشى ألّا تراها مرة أخرى، فلم يبقَ لها في الدنيا سواها.

ربَّتَ أنس على كتفها لتهدئتها، وما أن هدأت حتى قال لها:

-أنا أشكركِ يا جوليا، حقاً إني أشكرك. فإنني لم أتكلم مع أحداً عن هذه القصة منذ وقوع الحادث، كنتُ أخبئها في قلبي طوال تلك السنوات. لم يكن لي صديق أو قريب كي أتحدث معه كما تحدّثت اليوم. أشعر أن هناك ثقلاً ذهب عن كاهلي. كانت هذه الحادثة قد أتعبتني منذ زمن، ولكن ما أن تكلمتُ عنها اليوم، ذهب ذلك الثقل، وأشعر بأني أكثر راحة الآن.

ردّت جوليا:

إني سعيدة بهذا حقاً. لقد أشعرتَني بحالٍ أفضل عندما قلتَ هذا.

الذكريات الأليمة (2)

بعد فترة من الصمت قد سادتْ بعد أن روى أنس قصّته، توجه بسّام الى جوليا بكلامه:

-حسناً إذاً، ما رأيكِ يا جوليا أن تخبرينا بقصتك الآن. أشعر أن هناك شيئاً يؤلمكِ بشدة، إذ أنّكِ قد بكيتِ أيضاً قبل أن يخبرنا أنس بقصّته. أخبرينا ما الذي دفعكِ للذهاب الى حدائق الأطفال، والى المراكز التجارية، ولعب الألعاب، وتوزيع البالونات والدمى على الأطفال. ما الذي دفعكِ لفعلِ هذا كلّه. أشعر ان هناك سبباً مرتبطاً ارتباطاً وطيداً بذلك.

شعرتْ جوليا ببعض الارتباك، قد فاجئها بسّام بطلبه، إذ لم تكن مستعدة لأن تروي قصتها وهي على هذا الحال.

فكّرت بأن تقول بأنها غير مستعدة لأن تبدأ بالحديث عن قصتها، ولكنها شعرتْ بأنها يجب أن تتكلم، شعرت بأن ذلك قد يصلح من أمرها، ويعينها بعض الشيء.

استعدّتْ ثم أجابت:

-حسناً، سوف أخبركم. ولكنها قصة طويلة بعض الشيء، وستجعلني أتذكّر أحداثاً كنتُ قدْ أخفيتها منذ زمن ولم أخبر بها أحداً. إنكم أول من يسمع هذا.

هزّ كل من بسّام وأنس برأسيهما بأنهما قد فهما ما قالت، ثم باشرتْ جوليا بالحديث:

-بدأتْ قصتي منذ الطفولة، كنت في الثانية من عمري عندما تركَنا أبي أنا وأمي وذهب الى حيث لا نعلم. كان سكّيراً ومديوناً. ولم يكن يعمل أي شيء. كان يعتمد على أمي في تدبير مصروف المنزل وشراء الأغراض اللازمة. كان يعود في الليل المظلم ويبقى نائماً حتى عصر اليوم التالي- هذا ما قالته لي أمي- ولم يكن شخصاً مسؤولاً ابداً. وحسبَ ما ذكرته أمي، أنَّ هناك بعض الأشخاص في يوم من الأيام قد هاجموا المنزل، وكانوا يرمون الحجارة على النوافذ، ما أدى الى كسرها جميعها. كانوا يريدون المال منه. كان مديناً لهم بمبالغ طائلة. وكان يصرفُها كلها على الكحول. وفي يوم، ذهب من المنزل ولم يعد أبداً. ربما يكون قد قُتل، أو أنه يعيش في مكانٍ آخر، سعيداً. عشتُ سنوات طفولتي كاليتيمة، وكانت أمي هي من ترعاني. كانت تعمل بالحياكة، وكانت تعيلني مما تأخذه من ذلك العمل، لم تكن تأخذ مالاً كافياً، ولكنها استطاعت أن تدخلني المدرسة وتجعلني متعلمة. وعندما أصبحت في السنة الأخيرة من المدرسة، أصابَ أمي المرض الشديد. لم تعد تستطيع العمل كما

كانت من قبل. وبعد مدة قصيرة أصبحت طريحة السرير. بعدها اضطررت للعمل بعد المدرسة. عملت في الكثير من الأماكن. تنظيف المنازل، غسيل الأطباق، الخياطة، وآخر مكان عملتُ فيه وما زلتْ هو نادلة في مطعم. كنت أعمل وأدرس في المدرسة، ما أدى الى تراجع درجاتي بشكل كبير. كانت أوقات العمل طويلة، ولم أكن أحظَ بالوقت الكافي للدراسة. وفي نهاية الأمر، تخرجت من المدرسة بمعدل منخفض. وبعد انتهائي من المدرسة لا زلتُ أعمل منذ ثلاث سنوات كنادلة في المطعم ذاته. أشتري الدواء الذي تحتاجه أمي، وأؤمّن حاجيات المنزل. أصبحت مسؤولة عن كل شيء.

إنني أكره ذلك الرجل الذي أدعوه أبي وأكره كل شيء يذكرني به. لم يكن رجلاً حقيقياً. لم يكن زوجاً جيداً. ولم يكن أباً جيداً. كان مجرّد سكّير لا يهمه سوى زجاجة الكحول في يده.

بعد أن انتهت جوليا، كان أنس وبسّام متأثران جداً، ولكن سرعان ما تدخّل أنس:

-لقد احترمتكِ جداً بعد هذا يا جوليا. لقد عشتِ حياةً صعبة جداً، وتحملّتِ مسؤولياتٍ في سنٍ صغير. كان يجب أن تفعلي في تلك السنوات ما تحبّين، وتدرسين ما تفضّلين، وترسمين مستقبلاً باهراً كما تَحلمين.

أضاف بسّام على ما قاله أنس:

-لم يكن ذنبكِ ما حصل. لقد كان كل ذلك بسبب والدك. لقد جعلكِ تعيشين حياةً مختلفة عن بقية الأطفال في مثل عمركِ ذاك. ولكنّكِ تملكين أماً عظيمة.

جوليا:

-أشكركم على هذا. أنتم أول من أقول لهم بما أشعر منذ سنين طويلة. منذ طفولتي وأنا أكتم كل تلك المشاعر التي أتعبتني وجعلتني لا أعرف فرحاً أو بهجة طوال سنوات. ولكن عندما أخبرتكم ارتحت كثيراً. والآن كلّ ما أفكر به هو أن أعود الى أمي وألّا تقلق عليّ. فليس لديها سواي لأرعاها. وهذا كل ما أخشى. إني أفضّل العيش لأجل أمي، وليس لأجل نفسي. فلو كان الأمر بيدي، لكنت قد اخترت الموت منذ زمن طويل جداً.

الذكريات الأليمة (3)

بعد أن استمع كل من أنس وبسّام الى قصة جوليا، تفرقوا قليلاً وجلس كل منهم في مكان. كانوا يأخذون استراحة محارب بعد سماع كل تلك القصص الحياتية. شعر كل من جوليا وأنس بالراحة قليلاً، لقد شعروا أن هناك شيئاً قد أصبح مختلفاً عن ذي قبل.

لقد كان أنس يخفي حزناً كبيراً في قلبه منذ أن فارقت أسرته الحياة. وكانت جوليا تعيش حياتها مثقلة بالهموم التي قد تحمّلتها منذ أن كانت طفلة، وما زالت تتحمل ذلك حتى الآن. ولكن بعدما تشارك كل منهما أسرار وأحزان بعضهما، شعرا بأن هناك شيئاً أو شعوراً خفيّاً قد سرى في عروقهما وجعلهما يشعران ببصيص أملٍ ضئيل.

وبعد فترة من الصمت الطويل، والانقطاع عن الكلام والتحاور، تخاطر لأنس أن يسأل بسّام:

-ماذا عنك يا بسّام، ألا يوجد لديك قصة تودّ اخبارنا بها؟ ألا يوجد أي شيء تريد اضافته كما فعلنا انا وجوليا؟

بعد سؤال أنس له، شعر بسّام بأنه محاصراً بالإجابة. لم يكن قادراً على التفوّه بكلمة، لأنه ببساطة شعرَ نفسه مختلفاً تماماً عن أنس وجوليا، بل وشعر نفسه حقيراً ووحشاً.

أصبح يعلم الآن أنه يختلف عنهم كل الاختلاف، فهو لم يكن يتيماً منذ الطفولة، ولم يمت أحداً من عائلته وعاش وحيداً وكئيباً لسنوات طويلة. بل كان على عكس ذلك تماماً. لم يكن مقدِّراً لكل ما يملك، وكان يطمع دائماً بالحصول على المزيد، ولو أن ذلك كان يكلّفه التخلي عن كل شيء.

فجأة، شعر أنه السبب الرئيسي لوجودهم هنا في هذا المكان، شعر أنه سبب الاحتجاز، وانه قد ظلم شخصان لم يكن لهما ذنباً أو علاقة بهذا الأمر.

ولكن لمَ قد يحدث ذلك؟ سأل نفسه. ثم تراجعت الفكرة من عقله وسقطت في قاع الأرض. لقد نفى كل ما كان يفكر به. وأصبح يفكر الآن فقط بأنه السبب، السبب وراء كل ما يحصل.

بعد لحظات من الصمت وعدم الاجابة، كرّر أنس سؤاله لبسّام. وكان بسّام يبدي الصمت ذاته، وردة الفعل ذاتها.

كان لا يزال يفكّر، لم يستطع التخلص من كل تلك الأفكار بسهولة. فليس من السهل أن يشعر الإنسان أنه قد ظلم شخصاً أو أشخاصاً بسبب طمعه ونرجسيته. ولكن المحزن في الأمر، أن الأشخاص الجشعين والنرجسيين لا يشعرون بأنهم يؤذون أشخاصاً آخرين، لأنهم نادراً ما يفكرون بالآخرين، إنهم يفكّرون بأنفسهم غالبية الوقت. بل ويشعرون أنفسهم بأنهم أشخاصاً يسعون الى النجاح، وأن كل شيء سيفعلونه في سبيل ذلك مباحاً ومبرراً.

بعد مرور بعض الوقت، وعند تكرار أنس سؤاله لبسّام للمرة الثالثة، عاد بسّام من شروده ومن أفكاره المندفعة بقسوة والتفت باتجاه أنس.

لاحظ أنس بأن هناك شيئاً غريباً به، ولكنه لم يكن متأكداً من ذلك لأن جميعهم كانوا محاطين بغيوم الأفكار السوداء، والإرهاق النفسيّ المحتدم. وجّه سؤالاً لبسّام مباشرة:

-ما بالك يا بسّام؟ لقد كنتُ أناديك منذ فترة، ولكنك كنت شارداً ولم تجب.

أجابه بسّام وكانت لا تزال علامات الشرود واضحة على وجهه:

-نعم، لقد سمعتك ولكنني كنت شارداً قليلاً أفكر بأمرٍ ما.

ردّ أنس:

-حسناً، هل سمعت سؤالي لك؟ لقد سألتكَ إن كنتَ تريد اخبارنا بقصة ما، أو شيء ما كما فعلنا أنا وجوليا، هل لديك شيئاً لتقوله؟

أزاح بسّام بوجهه الى الجهة الأخرى من أنس، ثم رفع نظره الى السماء قليلاً، كان متردداً جداً من الرد، كان خائفاً من اخبارهم بقصته، ولكنه في النهاية قرر أن يرد:

-أجل، لدي ما أخبركم به، سأخبركم بكل شيء الآن.

التفت أنس الى جوليا التي كانت تجلس خلفه تماماً، نظرا في وجه بعضهما قليلاً، وكان يبدو عليهما السعادة قليلاً. فكّرا بأنه ربما هناك

شيئاً سيسمعانه من بسّام قد يَفيدوا منه. بعد ذلك، التفت أنس مجدداً الى بسّام وقال:

-حسناً أخبرنا ما لديك.

القسم الخامس

الاعتراف الموجع

بعد أن قرر بسّام أن يُخبر أنس وجوليا بقصّته، كان خائفاً من ردة فعلهما على ما سيرويه، إذ أنه كما فكّر سابقاً، كان متأكداً من أنه السبب بما حصل، ولكنه مع ذلك، قرر أن يقول لهم كل شيء.

كان كل من أنس وجوليا ينتظرانه لكي يبدأ بالحديث، وكان ينتظر من نفسه أن يستجمع قواه ويبدأ.

كان بسّام لا يعلم من أين يبدأ تماماً، ما الذي سيكون مناسباً ليبدأ به، إذ أنه كان يشعر أنَّ كل شيء قد فعله في الماضي كان مشيناً، ويخلو من الأخلاق. وبعد بضع ثوان، قرر البدء بالكلام.

-كنت أعيش في منزل متواضع مع عائلتي. وكان وضع عائلتي متوسط. لم نكن اولئك الذين نملك كل شيء ولا اولئك الذين لا نملك شيئاً، كنا في المنتصف تماماً. أبي يعمل محامياً، وكان يفعل كل ما يقدر عليه كي يجعلني أملك كل شيء. سجّلني في الجامعة التي اخترت، ودرست المجال الذي أحببت، وكنت أملك كل شيءٍ أريده. ولكنني كنت متكبراً على ذلك كله. كنت دائماً لا أقدر أي شيء يفعله أبي ويقدمه لي. كنت أرى ذلك قليلاً جداً. كنت أنظر دائماً الى ما يملك غيري. وكنت أتطلّع الى أبهظ الأشياء، وبما أن والدي لم يكن قادراً على شراء كل شيء أريده، كنت أتذمر دائماً منه. كان يوفّر كل شيء يقدر عليه حتى لا ينقصني شيء، ولكنني كنت شخصاً سافلاً وطماعاً. لم أكن راضياً بشيء. لا

المنزل، ولا الحي، ولا عائلتي حتى. كنت دائماً أفكر بالاستقلال والهروب منهم. حتى جاء ذلك اليوم الذي استطعت أن أبتعد فيه عنهم بعد تخّرجي بفترة، وكان ذلك اليوم يوم انتصاري على الحياة، كنت أرى ذلك أعظم انتصاراً. وبعدها، جاء اليوم الذي خسرت فيه كلّ شيء قد بنيته، ولم أعد أملك شيئاً. أصبحت شخصاً بلا مأوى وبلا عائلة وبلا شيء.

ما رأيكما بذلك؟ أعلم هذا. وأعلم ما تفكرون به. أنا سبب كل شيء. أنا السبب في وقوعنا هنا في هذا المكان الفارغ. هذا ما استحققته. هذا ما كان يجب أن يحصل معي لكي أتعاقب بشدة على كل شيء لم أقدّر أنني كنت أملكه. أنا لا أستحق أن أكون بينكما، فكلّ منكما قد عانى في حياته، وأنا كنت أعيش برفاهية وترف، ولكنني لم أقدّر شيئاً.

إني نادمٌ على كل شيء. نادمٌ على كل شيء سعيت له، وعلى كل إهانة وجهتها لأبي وأمي. إني نادمٌ حقاً، وهذا العقاب الذي أستحقه. أن أُحجز في مكان لا أعرف طريقة للخروج منه. إنني أستحق العقاب الشديد، بل الأسوأ من ذلك، إنني أستحق الموت معذَّباً بعواقب نرجسيتي.

لم يعلما أنس وجوليا ما عليهما أن يفعلانه. كانا قد تجمّدا في مكانيهما. لم يعرفان الطريقة المناسبة للتعامل مع بسّام. كان يبدو أنه نادماً جداً على كل شيء، وكان يبكي بحرقة.

فكّرا بأن يواسيانه بأن يقولا له أن ما حصل قد حصل. ولكنهما أيضاً كانا يريدان أن يعرفا أشياءً أخرى.

ما الذي جعله يتصرّف هكذا؟ وما الذي جعله لا يقدّر شيئاً يفعله والده له؟ لماذا كان يريد المزيد دائماً؟ ولماذا أراد الهروب من عائلته؟

كل هذه الأسئلة كانت تدور في رأسيّ أنس وجوليا. وكانا يريدان أن يسألوها لبسّام. ولكنه كان منهاراً جداً.

قررا الانتظار حتى يهدأ، وبعدها سيعرفان منه كل شيء. كانا يعتقدان أنه من المستحيل أنه كان يتصرف بذلك الشكل دون سبب، لا بد من وجود سبب حقيقيّ وراء هذا الأمر.

لم يتصرّف أنس وجوليا كما اعتقد بسّام. كان يعتقد انهما سيوجهان أصابع الاتهام نحوه، ويتهماه بوجودهم في هذا المكان، ولكنهما تصرفا عكس ذلك تماماً. بقيا هادئين وساكنين تماماً، جعلاه يفرغُ كل شيءٍ يحمله في صدره. بدا وكأنه يحمل هذه المشاعر منذ سنين، ولكنه كان لا يظهر شيئاً. كان لا يظهر سوى القساوة والغرور. ولكن أسفل تلك الأقنعة، كان هناك شخصاً مهزوماً ومحطماً منذ سنين. منذ أن ترك المنزل ورحل.

معرفة الحقيقة

بعد مضيّ نصف ساعة تقريباً، كان بسّام يجلس متكئاً على سورٍ خشبي لإحدى المنازل في الشارع. كان شارداً ومحملقٌ في الأرض. لم يكن يحرّكُ ساكناً.

كان بسّام صامتاً منذ فترة. وكان أنس وجوليا يجلسان كلٌّ في مكان. كانا ينتظرانه لكيّ يصبح قادراً على الكلام. فقد أخرجَ ذكريات سنواتٍ طويلة، وكان لا بد أن لها وقعاً كبيراً في نفسه.

***

بعد مضيّ نصف ساعة أخرى، اقتربت جوليا من بسّام وجلست بجانبه كما كان يجلس. اتكأت على السور الخشبي وأمعنت نظرها في وجهه.

شعر بسّام بالذعر الشديد. كان خجلاً من أن ينظر الى جوليا مباشرةً. بقي على جلسته السابقة ولم يغيّر وضعية جسده مطلقاً.

اقترب أنس وجلس الى الجهة الأخرى من بسّام، واتكأ أيضا على السور الخشبي. أصبح بسّام الآن في الوسط بينهما. وما زال على وضعه السابق، لم يحرّك ساكناً ولم يلتفت على أحدٍ منهم. كان شارداً في الأرض، ولا يعرف ما عليه فعله.

***

سألت جوليا:

-لماذا كنتَ تفعل ذلك؟

بقي بسّام صامتا ولم يجب، فكرّرت جوليا السؤال.

-لماذا كنتَ تفعل ذلك؟

بسّام:

-أفعل ماذا؟

جوليا:

-أنت تعرف ماذا أقصد.

بسّام:

-لا، لا أعرف.

تدخل أنس وقال:

-لماذا كنت تتصرف بغرور دائماً. لماذا كنتَ ترفض كل شيء، ولا تقدّر شيئاً؟

بسّام:

-كنت أريد أن أصبح مثله.

جوليا:

-مثل من؟

بسّام:

-مثل نزار.

جوليا:

-من نزار؟

بسّام:

-زميلي في المدرسة والجامعة.

أنس:

-ولماذا كنت تريد أن تصبح مثله، ما الذي كان مميزاً به.

بسّام:

-كل شيء، لقد كان أفضل مني بكل شيء. كنت أغار منه كثيراً، كنت أريد امتلاك كل شيءٍ يمتلكه، لم أُرد أن يكون أفضل مني بشيء.

جوليا:

-لماذا؟ بماذا كان أفضل منك؟

بسّام:

بكل شيء، كان يمتلك كل شيء في ذلك الوقت. بيتاً كبيراً، يعيش في مكانٍ راقٍ، يملكُ كلّ ما لا أملك. ولكنني كنت أذكى منه في الحاسوب، لذلك كنت أريد التقدم عليه بكل شيء.

أنس:

-أهذا كان سبب كل شيء؟ ها كان السبب بأنك تريد المزيد دائماً ولا ترضى بما تملك؟

بسّام:

-أجل، هذا هو السبب، كنت اريد أن أجعل نفسي أفضل منه، وكنت أريده أن يرى ذلك. كان دائم الغرور والتكبر، وكنت أريد أن أغيظه بمثل ما يفعل.

جوليا:

-ولكنّك كنت تقوم بإيذاء نفسك وإيذاء والدك. كما قلتْ، كان يفعل كلّ شيء لك، لم تكن محتاجاً لشيء أكثر.

بسّام:

-نعم، كنت أملك كل شيء، ولكن عندما كنت أقارن نفسي به، كنت أجد نفسي لا أملك شيئاً. كنت أزداد غيرةً وحقداً كلّما امتلك شيئاً لم أمتلكه.

أنس:

-ولكن هذا غير مناسباً. فلا يجب أن يرغبَ الشخص في امتلاك أي شيء يملكه غيره، إنه وسواس مرضي، بل إنه شيء مدمّر. لا تخضع نفسك في مقارنة مع غيرك، فربما غيرك يتمنى أن يعيش كما تعيش حتى لو امتلك كل شيء. ربما كنتَ تملكُ شيئاً يميّزك عنه تماماً. وكما ذكرتْ، لقد قلتَ إنك كنتَ أبرع منه في الحاسوب، ألم تنظر لذلك على أنه شيء جيد؟

بسّام:

-لا، لم أكن أفكّر هكذا. كنت اعتبر ما أمتلكه من خبرة في الحاسوب شيئاً عادياً. لم أكن أظنه شيئاً مميزاً. لكنني عندما تذكّرت كل ما كنت أفعل، وجدتُّ أنني كنت غبياً جداً. لم أكن أحتاج أن أقارن حياتي به. كان ما أملكه جيداً لي. كانت حياتي السابقة تناسبني تماماً ولكنني لم أكن أقدّر ذلك. لقد تسبّبتُ بتدمير حياتي بسبب الغيرة وتمني أشياء لا أحتاجها، إضافة الى نرجسيتي التي كنت أقدسّها. كل هذا كان السبب في انهائي.

جوليا:

-لا بأس، تستطيع إصلاح كل شيء. بما أنّكَ قد عرفتَ خطأك، فأنت تعرف كيف تصلحه. يجب أن تعود الى حياتك السابقة. يجب أن تذهب الى بيتك وأن تعيش هناك.

بسّام:

-لا أستطيع، بعد كل ما فعلته لا أستطيع الرجوع هناك.

جوليا:

-بل تستطيع، سوف تعود وسوف يكون كل شيء بخير.

بسّام:

-وكيف سأقابل أبي؟ ماذا سأقول له؟ لماذا ذهبت؟ ولماذا عدت؟ لا أستطيع المواجهة.

أنس:

-صدقني، لن يسألك أي شيء ما أن تعود.

جوليا:

-ما يقوله أنس صحيح، لن يسألك شيئاً، بل إنه لن يكون مصدقاً أنك عدت، سوف يعانقك فوراً حين يراك.

لم يعلم بسّام ما عليه أن يفعل في تلك الحظة. لقد كان حائراً جداً. فبعد أن أخرج كل شيء في قلبه، شعر أن الأمر أصبح أسهل، فلم يتلقَّ ردة الفعل القاسية التي كان يتوقَّعها من أنس وجوليا. لقد كانت على العكس تماماً مما توقع، وهذا أمراً جعله يهدأ قليلاً.

كان في حالة من اللاشعور، لم يعرف ما عليه فعله. كان يفكّر فيما قاله أنس، وكان يقوم بحبكات درامية للقائه مع والده. ولكن سرعان ما أن رفض الفكرة بمجملها. كان خائفا، مترددا، وحزيناً.

وبسرعة، وقف من مكانه، وأخذ يمشي مبتعداً عن أنس وجوليا. كان يذهب للجلوس وحيداً. كان عليه أن يحسب كل شيء. عليه أن يفكّر بكل شيء. وإلّا فإنه سيبقى يدور في متاهة من التشعبات الفكرية الغير مجدية.

وحيداً، راح يستذكر ويعيد كل احداث حياته السابقة. أصبح واعياً لأخطائه، ونادماً عليها جميعها. كان يريد إصلاح كل شيء، وأن يعيد حياته كما كانت في السابق. وبينما هو منغمس بذلك، افترست رأسه فكرة كان غافلاً عنها. قال: في البداية يجب أن أخرج من هنا، وإلّا فإن شيئاً لن يحدث.

القسم السادس

إيجاد الاجابات

عاد بسّام الى جوليا وأنس. جلس بجانبهم وأشار لهم بيده كي يعيروه انتباههم. ثم قال:

-لقد نسيتم أمراً هامّاً جداً.

ردَّ أنس باستغراب:

-ماذا نسينا؟

بسّام:

-لقد بدأتم بحساب كلِّ شيء، والتفكير بطريقة ذهابي الى عائلتي وهذه الأمور جميعها، ولكنّكم نسيتم أننا لا زلنا محجوزون هنا، ولا نعرف كيف سنخرج.

جوليا:

-لم ننسَ ذلك أبداً، كيف لنا أن ننسى ما نحن فيه. ولكننا في لحظة ما، شعرنا بالأمل، وشعرنا بأن هناك أموراً هامّة أكثر مما نحن فيه، وهي أنت.

بسّام:

-أشكُركِ على ذلك، ولكن لن نستطيع فعل شيء ان لم نخرج من هنا. وهذا ما يجب أن يشغلنا الآن.

لاحظ كل من أنس وجوليا بأن ما يقوله بسّام صحيحاً. كانوا قد شغلوا أنفسهم قليلاً عن التفكير في الأمر. لقد شغلتهم قصصهم عن التفكير في الخروج من المكان. وأصبحوا مهتمين تماماً بالإفراغ عن أنفسهم والتعرّف على ما عايشوه في حياتهم قبل مجيئهم الى هنا.

كانوا قد فتحوا قلوبهم لبعضهم البعض، وأصبحوا مشتركين في معرفة معاناة بعضهم البعض. وذلك ما كانوا يخفونه أثناء عيشهِم في حياتهم الطبيعية.

في هذه اللحظات، راودت جوليا أفكاراً لم تخطر لها من قبل. لاحظت وهي تجلس بلحظة صمت بأنهم قد قالوا كلَّ شيء شعروا به، وأنهم لم يخفوا شيئاً عن بعضهم منذ دخولهم الى هذا المكان.

شعرتْ بأن هذا المكان الذي احتجزوا في فيه قد دفعهم الى البوح بكل الكتمان الذي كانوا يسرّونه في صدورهم.

جعلهم هذا المكان يتركون أسرارهم التي كانت تأكلهم وراءهم وجعلوها تخرج بعيداً آخذةً معها أوجاع الماضي جميعها.

في مكان ما في روح كل واحدٍ منهم، كان هناك شيئاً مدفوناً يتوقُ الى الخروج. كان يرفض مستنقع الذكريات العفنْ، ويريد أن يحترق بشمس الحقيقة.

كل البشر تواقون الى البوح، قليلٌ منهم من يفضّل الكتمان. كلهم يريدون حدثاً ما، طريقةً ما، مخرجاً ما، ليفرغوا ما في قلوبهم.

بعض البشر يخرجونه في الصراخ، وبعضهم الآخر بالصمت، والغالبية العظمى بالبكاء وحيدين.

إن جميع الناس ما أن يحدثَ معهم شيئاً من الظلم أو القهر، يبدؤون بإخراج حقدهم الدفين في وجه من أمامهم. يصلون الى مرحلة من عدم تحمّل شيئاً اضافياً. يصل ذلك البئر الى حده حتى يطفح، وما أن طفح، فلبئسَ ما يفعله.

***

وهي شاردة في تلك الأفكار عمّا فعله هذا المكان بهم، قررت جوليا مشاركة ما تخاطر لها مع بسّام وأنس.

رأت أن ذلك سيكون من المنطقي أن يتشاركون ذلك سوياً كما تشاركوا كلّ شيء.

وما أن هدأت قليلاً حتى ذهبت لتحدّثَهُم.

سرّ المكان الصامت

اقتربت جوليا من أنس وبسّام، جلست أماهم مباشرةً وهي تُظهر على وجهها ابتسامةً مرسومةً بدقة على شفاهها.

استغرب أنس وبسّام رؤيتها على هذه الحالة. نظرا الى بعضهم لوهلة ثم التفتا الى جوليا مرة أخرى. سأل أنس:

-ماذا يحصل يا جوليا، لماذا تبتسمين؟

جوليا:

-لأنني وجدتها.

بسّام باستغراب:

-ماذا وجدتِّ؟

جوليا:

-الإجابة الكاملة، السر بأكمله.

أنس:

-سر ماذا، وإجابة ماذا؟

جوليا:

-اجابة وجودنا هنا، السر الكامن وراء ذلك.

بسّام:

-أحقاً؟! وما هي أخبرينا بسرعة.

أنس بدهشة وعجَلَة:

-أجل، ما هي أخبرينا.

جوليا:

-السر لوجودنا هنا هو نحن. نحن بذاتنا. ألم تلاحظوا شيئاً؟

أنس وبّسام:

-ماذا؟

جوليا:

-منذ أن احتجزنا هنا، كان كلٌّ منا يخفي قصّته عن الآخر، لم يكن أحداً منا يعرف عن الآخر شيئاً. كنا نخفي قصصنا عن الجميع، كنا نجعلها سراً مدفوناً بإحكام. لم نكن قد أخبرنا أحداً من قبل بأي شيء. ولكن ما أن أصبحنا هنا، حتى بدأنا بمشاركة كل شيء عن أنفسنا لكي نجد حلاً للخروج من هنا. وهذا كان سرُّ هذا المكان. أرادنا أن نبوح بكل شيء كنا نخفيه.

أنس:

-معكِ حقٌ تماماً، أصبح الأمر الآن واضحاً بالنسبة إلي، لقد أصبح جليّاً جداً. عندما أفكّر بالأمر الآن أجده منطقياً تماماً. هذا صحيح، لقد كنا نخفي كلَّ شيء، بعدها بدأنا بمشاركة كل شيء. هذا منطقي، هذه هي الإجابة فعلاً.

بسّام:

-هذا صحيحٌ تماماً، هذه هي الإجابة، أشعر أن هذا كلُّ شيء يتعلّق بوجودنا هنا. لقد جعلنا هذا المكان نعرف حقائق أنفسنا بعدما كنّا بعيدون عنها. لقد جعلنا نعيد التفكير بكلّ شيء، وجعلنا نقدّر كل شيء. إنها حقاً الإجابة. ولكن يا جوليا، كيف عرفتِ ذلك؟ كيف تبادر لكِ هذا؟

جوليا:

-عندما فكّرتُ بكل شيء حصل معنا منذ البداية، وكيف بدأنا وكيف وصلنا لهذه اللحظة، أصبح كل شيءٍ واضحاً. لقد أصبح الأمر مكشوفاً لوحده لديّ.

شعرَ الثلاثة بالسعادة العارمة، كانوا فرحين جداً بأنهم قد وجدوا لغز هذا المكان، عرفوا أنهم قد وجدوا الإجابة التي كانوا يبحثون عنها. لم يحتاجوا الى دليل ليؤكد لهم ذلك، فقد كان كل شيءٍ واضحاً وحقيقياً.

كانوا يشعرون بسعادة لم يشعروا بها منذ أن دخلوا الى هذا المكان، بل ربّما لم يشعروا بها في حياتهم. فلقد شعروا أنهم قد حلّوا لغز حياتهم الآنيّة، ولغز حياتهم السابقة.

وجدوا أنهم قد اكتشفوا أنفسهم عن طريق اكتشافهم للغزِ هذا المكان. كان هذا بمثابة بداية حياة جديدة لهم، يكونون فيها أصدقاء مع بعضهم البعض. فلم يكونوا يملكون أصدقاء قبلاً، ولكنهم الآن أصبحوا أصدقاءً يعرفون بعضهم تمام المعرفة، ويتقبّلون بعضهم على ما هم عليه.

شعروا أنهم بحاجة الى أن يعانقوا بعضهم، وقفوا على شكل دائرة، وكانوا ينظرون في عيون بعضهم بسعادة.

اقتربوا من بعضهم ثم تعانقوا.

***

ما أن انتهوا من العناق، وجدوا أن المكان الذي كانوا فيه قد اختفى. فجأة، وجدوا أنفسهم في شارعٍ عاديّ، يعجُّ بالناس والسيارات والحياة الطبيعية. نظروا حولهم، لم يكن ذلك المكان موجود، لم يكن له أثر، وكأنه لم يكن أبداً.

نظروا الى بعضهم بدهشة عجيبة كادت أن توقفُ قلوبهم. ظلّوا صامتين لفترة طويلة. وما أن تبادر الى أذهانهم ما حصل، التفتوا الى الوراء، وركضوا باتجاه حياتهم القادمة.